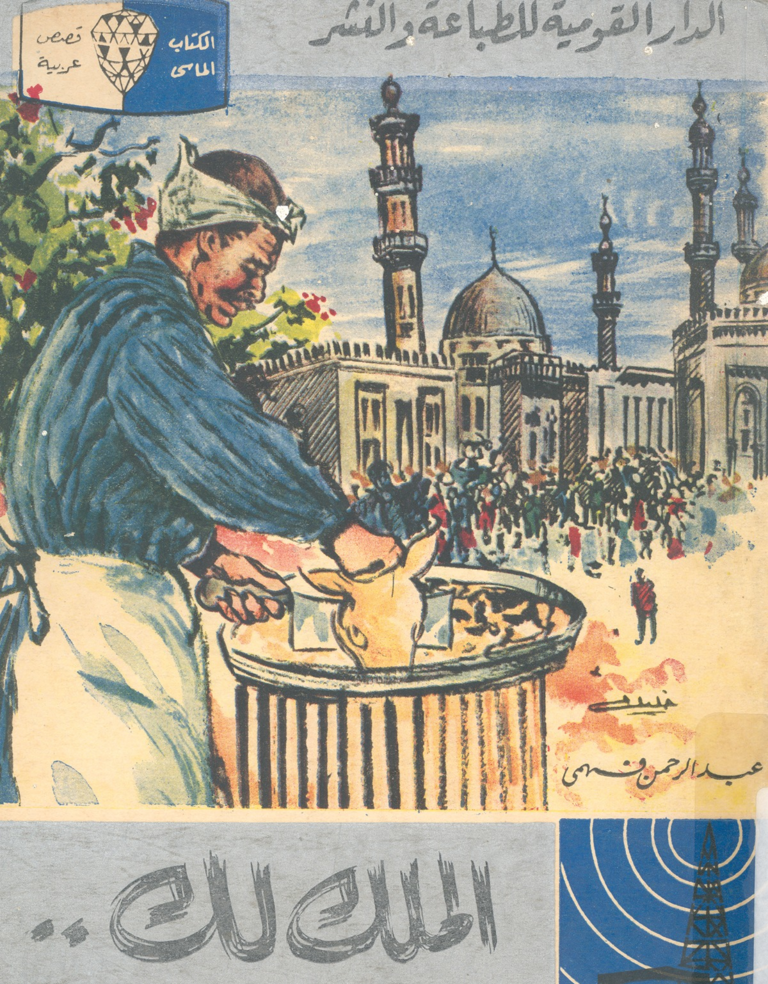


الملك لك..

من مختارات الاذاعة والتليفزيون

الكتاب الماسي
قصص عربية

الملك لك

عبد الرحمن فهمي

الرجل الذي يعرف كل شيء

كان لقائي به صدفة من الممكن ألا تقع، ولكن حديثه الى بعد أن التقينا كان قضاء مبرما لامفر منه ، ولقد أشعرتني نظراته بهذه الحقيقة منذ التقت عيوننا •• كانت نظراته الباسمة فيها ايحاء لم أستطع تفادى معناه •• كانت تقول لى :

« سأتحدث اليك وتتحدث الى رغم أنفك •• وسيتصل حديثنا حتى يغادر أحدنا القطار أتراك ستنزل فى المعادي•• ؟ أم فى المعصرة •• ؟ أم ••• »

وحولت عينى عن عينيه لأفر من هذا التساؤل المنسكب منهما •• فقد كنت ضيق الصدر ملولا لاأشعر بميل الى الدردشة الفارغة التى تجرى عادة بين راكبى قطار غريبين يستعينان بها على قطع الوقت •• وكانت لدى فى نفس الوقت أفكارى الخاصة التى يلذ لى أن أخلو اليها قبل أن أصـــل بيتى فى حلوان حيث ينتظرنى ضجيج أولادى الاربعة ، ونشرة أخبار الجيران ، التى تصر زوجتى على أن تقرأها على ونحن جالسان مع الاولاد الى مائدة الغداء •

وكان القطار قد بدأ يتحرك وئيدا من محطة السيدة زينب بين صفين من البيوت التى سود جدرانها دخان القطارات عندما كانت تسير بالفحم •• كان ذلك منذ سنوات قبل أن يكهرب خط حلوان •• والآن •• وقد اختفى الفحم ، وكفت القطارات عن نفث دخانها الأسود على واجهات البيوت •• لايزال السواد عالقا بالجدران •• لم يزله كر الأيام وتوالى السـنين •• خطأ كبير مايشاع من أن الزمن يمحو الأحزان ويخفف من سواد الأيام

.. بل انه ليزيدها قتامة وكلاحة .. أنا مثلا .. وأنا في الأربعين من عمرى الآن لا أذكر أننى أحسست بالبهجة منذ خمس عشرة سنةأوأكثر .. وأحاول أن أضع يدى على سر كآبتى تلك المتصلة فلا أجدشيئا معينا .. لا أستطيع أن احدد حادثا أو ظرفا خاصا أرد اليه اكتئابى الدائم .. وهل نستطيع ان نحدد الزمن .. ذلك الزمن المتصل بلا انقطاع ..الممتد الى غير نهاية .. انه سر اكتئابى .. لحظاته تمر بى مرور القطارات .. كل منها ينفث فى نفسى لفحة دخان ، وتتراكم اللفحات ، فاذا بنفسى سوداء كئيبة ..

وبدأ القطار يسرع فى سيره ، وأخذت المناظر خارجه تتداخل فتفقد تحددها وذاتيتها فانصرفت عن التطلع من النافذة ، وأدرت رأسى الى داخل القطار ، فالتقت عيناى بعينيه مرة أخرى.. يالله ! .. كنت قد نسيته فى غمرة هذه الأفكار الخاصة .. وهاهو الآن ينظر الىنفس النظرة التى تقول لى فى اصرار : سأتحدث اليك وتتحدث الى رغم أنفك ..

وأخذت أتفحصه كقضاء مكتوب ليفسد على خلوتى الأثيرة بنفسى كان فوق الخمسين ودون الستين بغير شك .. فهذا الشعر الرمادى الذى يكسو رأسه الضخم المكور لا هو فى سواد شعر الشباب ولا هو فى بياض شيب الشيخوخة .. وهذه التجاعيد التى تبدو على وجهه الأبيض السمين ليست جافة كما ينبغى أن تكون أخاديد الزمان .. انها تجاعيد أشبه بغمازات ضاحكة فى وجه خلى طلق .. وهذه الحيوية التى تتدفق من عينيه اللامعتين والتى تبدو فى حركات جسمه القلقة رغم سمنته .. لاتزال تنطق بتوفر واقبال على الحياة لايعرفهما الا الشباب ، أنا نفسى فقدتهما منذ تخطيت الخامسة والعشرين .. وكان لايزال يبتسم ، ويبدو أن اللحظات التى تفحصته خلالها قد أشعرته باهتمامى به .. فازدادت بسمته اتساعا ، وازداد اصرارا على أن يتحدث الى .. فلم أملك الا أن أحول عينى الى

جدار القطار على يسارى •• وتشاغلت بالنظر الى اعلان معلق فوقه عن لبن للأطفال صناعى •• وأحسست دون أن أراه بأن بسمته اتسعت حتى كادت تصبح ضحكه ، فتجهمت حتى لاأترك له فرصة ظن سيء يشجعه على فتح فمه وعلقت عينى فى اصرار متعمد باعلان لبن الأطفال ، وورغم هذا كله سمعته يقول لى :

« صحته طيبة •• أليست كذلك ؟ •• »

ولم أعرف عمن يتحدث ، ولامن هو طيب الصحة المذكور •• فتظاهرت بأن كلامه غير موجه الى ، ولكنه لم يأبه بصمتى ومضى يقول :

« انهم يختارون صور أطفال أصحاء بدرجة غير عادية ليروجوا لبنهم •• »

وعندئذ أدركت أنه كان يتحدث عن صورة الطفل التى فى اعلان اللبن الصناعى •• ولم يكن لدى ماأرد به عليه ، وان كنت لم أملك نفسى فنظرت اليه فى شيء من الغيظ ، وكأننى أقول له « عملتها •• ! سامحك الله •• » ولم تؤثر نظرتى المغيظة على بسمته العريضة ،

فمضى يقول :

« ولكن •• ان أردت نصيحتى فليس أفضل للطفل من لبن الأم •• اياك أن ترضع ابنك لبنا صناعيا أبدا •• كان عندى ولد مرضت أمه بعد ولادته وعجزت عن ارضاعه •• »

وأخذ يقص على قصة ما ••

لقد انتصر على اذن ودخل معى فى حديث •• وأحسست بغضب صبى انهزم فى لعبة المساكة •• فكافحت لأنتزع منه هذا النصر وأسكته •• فقلت فى سرعة وحدة ••

« أنا أولا غير متزوج •• وبالتالى ليس عندى أولاد •• ولا يعنينى الفرق بين لبن الأم وبين اللبن الصناعى •• »

ولاحظت أنه أخذ بهذه الحدة للحظة قصيرة ، ثم جرت عيناه بسرعة لتقعا على خاتم الزواج فى اصبع يدى اليسرى •• لاشك أنه أدرك الآن أننى كاذب •• ولم أشعر بالخجل ، بل رفعت يدى اليسرى أمام عينيه وأخذت أدير خاتم الزواج فى اصبعى ونظراتى تكاد تقول « لاأودالتحدث اليك ياسيدى الصفيق •• » ولست أدرى ما الذى جعله يضحك فىاصرار ويقول :

« لم تتزوج حتى الآن ؟•• الزواج نصف الدين يا أخى •• »

أهو غبى الى هذا الحد ؟•• ماذا أقول له ؟ •• ولكنه أنقذنى منهذا التساؤل فقال :

« ولكنكم يا أولاد مصر لاتقبلون على الزواج مثل أبناء الريف •• الفلاح يتزوج بمجرد بلوغه السادسة عشرة •• ويلجأون الىطبيب يخدعونه ليقدر سن الولد والبنت •• »

« ياويلتى •• » قلتها لنفسى •• لقد فتح باباآخر للحديث •• فلأسده عليه اذن ! ••

فقلت مقاطعا فى سرعة :

« ياسيدى •• أنا فلاح •• ولدت •• وتربيت •• وعشت فىالريف حتى العشرين من عمرى » ••

ونظرت اليه تلك النظرة المغيظة •• ولم أشعر الا بعد فوات الوقت بأننى ألقيت اليه فى غباء بخيط جديد لم يتردد فى التقاطه قائلا :

« أنت من الريف ؟.. من أى بلد أنت ؟ .. »

وقريتى قرية نكرة .. تتبع مركزا نكرة .. ولا شك فى أنه انما يسألنى عن المديرية فهى التى يمكن أن يعرفها .. ولكننى وجـــدت لذة صبيانية فى اغاظته ، فقلت :

« من عزبة الخطاف .. »

وانتظرت ليسألنى عن المركز ثم عن المديرية .. ولكنه ـ لدهشتى ـ لم يفعل .. وانما قال فى غير اكتراث :

« عزبة الخطاف .. ! تعرف اذن الحاج محمد أبو أحمد ..؟»

ووجدتنى أتطلع اليه لاول مرة فى اهتمام .. فقد كنت أعرف فعلا الحاج محمد أبو أحمد ، وقلت له :

« هو عمى .. »

فقال دون اكتراث أيضا :

« عمك ؟ .. انت ابن من من اخوته ؟ .. الحاج محمود ؟ أو الحاج ابراهيم ؟ أو الحاج زهران ؟ »

فقلت له :

« أنت تعرف أعمامى كلهم ؟.. »

كان الحاجز الذى أقمته بينى وبينه قد زال من نفسى ، ووجـــدتنى أتبادل معه الحديث فى ود واهتمام ..

وأجاب على سؤالى الأخير بسؤال جديد :

« ألا يزال ابن الحاج زهران يعرج من أثر الرصاصة .. ؟ اسمه حسين .. أليس كذلك ؟ »

كان ابن عمى قد أصيب منذ عشر سنوات بطلق نارى فى ساقه حقا .. ولكن اسمه لم يكن حسينا ..

فقلت له مصححا :

« فتح الله .. ! »

ولم يبد عليه أى اكتراث بتصحيح الاسم ، وانما مضى يقول :

« لقد وقع الحادث أمامى .. كان الولد الخفير ينظف البندقية .. انه قضاء وقدر .. »

فقلت :

« طبعا .. ! لقد كنت موجودا أيضا ساعة الحادث ، ولكننى لا أذكر أننى رأيتك هناك .. »

« ألا تذكر سيد أفندى عبد الحافظ السكرى ؟ .. أبوك وأعمامك يذكروننى طبعا .. لقد نزلت ضيفا على عمك الحاج محمد اسبوعين .. كنت أشتغل أيامها فى الطرق والكبارى .. وكان لعمك مشكلة مع المصلحة وطلب منى سعادة المدير العام أن أتولى حلها .. قال لى ان معالى الوزير اقترح اسمى شخصيا .. الوزير أيامها كان احمد باشا المرعشلى .. كانت زوجته صاحبة زوجتى وكنا نتزاور كثيرا فسويت المشكلة لصالح المصلحة .. عمك رجل نزيه .. قال لى ياسيد أفندى ياسكرى أنت رجل تحب الحق .. وأنا أحب الحق .. وعزمنى عنده أسبوعين فى عزبة الخطاف .. كنا

نخرج نصطاد البط .. بلدكم مشهورة بالبط كما تعرف .. كان عمك يقول لى ياسيد أفندى ياسكرى أنت صياد أسود لا صياد بط .. لم تخب لى طلقة واحدة .. نعم .. تعلمت الصيد مع مهندس انجليزى كان مديرا للمصلحة سنة ٢٨ .. عمك كان لايستطيع ضبط النيشان .. أنا علمته .. »

ملاحظة خارج القصة : سألت عمى فيما بعد عن سيدأفندىعبدالحافظ السكرى فقال لى : والله ماانا فاكر ياابنى .. يجوز !..

عودة الى القصة : ومضى سيد أفندى يقص على حكايات عن عمى وعن بلدنا .. وكان وجهه السمين قد تطلق تماما .. خداه يترجرجان وهو يضحك ، وتجاعيده تنبسط حينا وتتداخل حينا آخر فى مرح ، وعيناه دائما متألقتان . ووجدتنى أضحك .. وأضحك .. بدأت أضحك مجاملا .. ولكنى انتهيت الى ضحك صاف صادر من القلب .

ومر القطار على قرية صغيرة لاتتجاوز بيوتها تسعة أو عشرة فسألنى: « تعرف هذه العزبة ؟.. »

ولم أكن أعرفها قطعا .. ولكنه كان يعرفها كما يعرف كل شىء ، فمضى يقول :

«عين أعيانها هو الحاج صالح مرتضى .. رجل طيب .. وحج أربع عشرة مرة .. قبضوا على ابنه مرة فى جريمة قتل .. قتل واحدا من البدو .. وجاءنى ولهان مفجوعا يستغيث بى .. الحقنى ياسيد أفندى ياسكرى، الولد فى السجن .. ومصيره الاعدام .. قلت له اهدأياحاج صالحواتركنى أتصرف .. وبعد أن تعشينا وشربنا الشاى قلت له نم عندى .. الحجرة القبلية خالية .. فنم فيها ، وفى الصباح يأتى الفرج ..»

وصمت سيد افندى فجأة ، ونظر الى لحظة .. كنت قد استحلت الى أذن مصغية وتشوق ملتهب لمعرفة ماحدث ، فمضى يقول :

« الفرج دائما يأتى مع الصباح .. أعقد المشاكل أحلها قبل شروق الشمس .. بعد أن أصلى الفجر .. انها ساعة مفترجة .. مرة وأنا فى بلدكم قابلت رجلين على الزراعية .. »

وانتقل الى حكاية أخرى ، فقاطعته فى لهفة :

« أكمل لى حكاية ابن الحاج صالح .. »

فقال فى غير اكتراث :

« لاشىء .. أفرج عن الولد وقيد الحادث ضد مجهول .. »

فقلت فى دهشة :

« ماذا فعلت له ؟ »

فضحك فى بساطة قائلا : « لاشىء هام ..! أولا هربت الولد من السجن .. »

فهتفت فى دهشة أشد : « هربته ؟.. وكيف ؟! »

فلوح بيده ضاحكا وقال : « والله لا أتذكر التفاصيل الآن .. المهم ان ربنا سهل وهربته .. كنت أقول لك اننى قابلت اثنين على الزراعية .. كان واحد منهما أسمر طويلا .. »

ومضى فى الحكاية الجديدة ، وبدأت أنا أتساءل : أقصة الحاج صالح حقيقية ؟.. وان كانت كاذبة كما اعتقد .. أكل مايقصه على الآن كذب

فى كذب ؟•• ولماذا يكذب على ؟ •• انه لن يكسب شيئا من هذه الأكاذيب ونحن لسناسوى راكبى قطار غريبين التقيا ليفترقا بعد لحظات ••

وكان سيد أفندى يحكى ويضحك •• ويضحك ويحكى ••فتطلعت الى وجهه السمين الرجراج ، لم يكن فى عينيه المتأمقتين أثر لما يمكن أن يولده الكذب فى نفس قائله من شك وترددأو ادعاء وتبجح•• كان يحكى فى طلاقة •• ويضحك فى طلاقة •• أتراه لايعرف انه يكذب ؟ •• هذا الرجل الذى يعرف كل شيء لايعرف أنه يكذب •• وأنه انما يعيش فى وهم كبير ! ••

ولم أتنبه الا والقطار يدخل بنا حلوان •• لقد قطعت دون أن أشعر كل هذه المسافة التى اعتدت أن أقطعها ضجرا سأمان كل يوم •• لقدمضى الزمن دون أن أحس بوطأته •• بل ان تلك اللحظات القصارالتى أمضيتها فى أول الرحلة مع أفكارى ، متفلسفا حول سواد الدخان ، لتبدو طويلة جدا بالنسبة الى هذا الوقت الذى أنفقته مستمعا الى أكاذيب سيد افندى عبد الحافظ السكرى •

وغادرنا القطار معا ، فتأبط ذراعى ، وسار يحيى كل من فى المحطة، يتوقف ليصافح بعضهم ، ويلوح لبعضهم الآخر ، الا أن وجهه كانت تطفر منه السعادة فى الحالين • وفى خارج المحطة رأى طفلا صغيرا ، فأسرع اليه يقبله • ثم دس يده فى جيبه وأخرجها بملء قبضة من الحلوى الرخيصة أعطى الطفل واحدة منها ثم أعاد الباقى الى جيبه ، فانطلق الطفل فرحا ، الا أن فرحة سيد أفندى كانت أكبر وهو يتأبط ذراعى قائلا :

« هذا الولد أبوه صاحبى • •انه يشتغل فى •• »

ومضى فى حكاية جديدةلم يقدر له أن يتمها، فقد رأى على الرصيف صبيا فى السادسة عشرة فلوح له بيده هاتفا :

« أهلا عبد الحميد .. ابوك رجع من السفر ؟ »

فقال الصبى وهو يقبل عليه مسلما :

« أنا صفوت ياعم سيد أفندى .. وأبى لم يسافر .. »

فقال سيد أفندى وهو يربت على ظهره فى حب :

« اذن سلم لى عليه ! .. »

وعاد يتأبط ذراعى قائلا :

« عبد الحميد هذا ولد ذكى .. ذكى جدا .. فى مرة جاءنى ..»

وأخذ يقص حكايته مصرا على أن اسم الصبى ليس صفوت وانماهو عبد الحميد ..

ووصلنا أمام بيتى ، وما كاد يعرف هذه الحقيقة وحتى قطع حكايته وأشار الى البيت قائلا :

« أنت تسكن هنا ؟ .. هذا بيت الست توحيدة أرملة المرحوم عدلى أفندى .. أنا أعرفه .. فى يوم وفاته .. »

وبدأ يقص حكاية عن المرحوم ، فانتهزت فرصة لحظة سكت فيها ليلتقط أنفاسه وقلت :

« تفضل معى ياسيد أفندى .. والله تفضل تتغد معى ! .. »

وفى نفس الوقت كانت كفى تهز كفه فى مصافحة سريعة ، فقال :

« عشت يا أخى .. سأزورك قطعا وفى يوم قريب .. أنا ساكن هناك ..»
والتفت ليشير بذراعه نحو شارع آخر ، فرأى رجلا يحييه من بعيد فصاح به :

« أهلا سى فرحات .. انتظر .. خذنى معك .. »

والتفت الى قائلا فى سرعة :

« أزورك قطعا ذات يوم .. سلم لى على عمك الحاج محمد .. »

وانطلق نحو رفيق الطريق الجديد فى خفة ونشاط أحسده عليهما.. أنا الذى أصغره بعشرين سنة الا قليلا ..

***

وعلى مائدة الغداء بدأت زوجتى تقول :

« ست عزيزة جارتنا أرسلت تقترض المفرمة من ست جمالات.. »

ونظرت الى وجه زوجتى ، فرأيت فى عينيها نظرة متألقة تألق نظرة سيد أفندى السكرى .. لماذا أظل وحدى كئيبا ضيق الصدر ؟ .. لماذا تخبو نظرات عينى أنا وحدى على مر الزمان ؟.. نعم لماذا ؟! ..

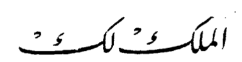
والتفت الى زوجتى وبدأت أضحك وأقول :

« تصورى .. استدعانى المدير العام اليوم وقال لى ياسعيد .. انت حلال العقد .. سيادة الوزير طلب منى أن أكلفك شخصيا بأن تدرس هذا التقرير وتستخلص منه .. »

ووجدتنى أصمت فجأة وأقطع ضحكتى .. وتطلعت زوجتى الى بعينيها تنتظر بقية الحكاية .. ولكننى كنت عاجزا عن اتمامها .. فانصرفت الى لقمة ألوكها فى فمى بطيئا متثاقلا ..

لا .. لا أستطيع .. اننى أعرف أننى أكذب .. أما سيد أفندى

السكرى فهو لايعرف أنه يكذب •• انه مقتنع تماما بينه وبين نفسه بأنه الرجل الذى يعرف كل شيء •• والذى يفعل كل شيء •• وأن الأرض ستكف عن الدوران ان فقدته •• أما أنا •• فالحقيقة تكبلنى بأغلال تعوق فرارى •• وتلقينى مقيدا عاجزا أمامالزمان ينفث فى نفسى من سواده طبقة فوق طبقة ! ••


الملك لك

كنت أراه كل ليلة وانا جالس تحت أضواء (النيون) التى تسطع فى أرجاء المقهى وخارجه ، كان يدلف من الباب الزجاجى وعلى رأسه صينية من الخشب مغطاة بخرقة من القماش الأبيض وفى يمينه حامل من الخشب أيضا ، ثم يطوف بين المناضد الرخامية مناديا فى صوت هادىء وقور (الكبد) يقولها مرة واحدة بجوار كل جماعة ولا يكررها ثم يدلف خارجا فى خطو متمهل وادع .

لم يكن بائعا عاديا من هؤلاء الباعة الذين يملأون المقاهى فى القاهرة فقد كان طويل القامة عريض المنكبين ، تضىء عيناه بنظرة قانعة راضية ، وترتفع جبهته عالية فى ثقة واطمئنان . وكان حول وجهه لحية مهذبة تنتهى أسفل ذقنه بزاوية مدببة ، تهتز هزة خفيفة كلما حرك فكيه لينادى فى هدوء ووقار (الكبد ..) وكان الى هذا نظيفا فى أناقة ، يتسربل بجلباب أبيض ناصع البياض كأنما غادر المغسلة فى التو .. سواء رأيته فى أول المساء أو فى أول السهرة أو فى نهايتها ، وعلى رأسه عمامة صغيرة رشيقة .. هى طاق من نفس القماش الأبيض ، ملفوف فى عناية على طاقية بيضاء ، وفى قدميه نعلان من المطاط الابيض يحرص على أن يجنبهما أقذار الطريق ورذاذ الطين . كان كتلة من البياض تتناسب مع تلك النظرات البريئة العميقة التى تشع من عينين ضيقتين فوقهما حاجبان كثيفان من الشعر الاسود . على أن أكثر ما لفت نظرى اليه هو تلك الصينية الخشبية التى يحملها فوق رأسه ، كانت قرصا مستديرا له حافة عريضة ، مثلها كمثل أية صينية لأى بائع متجول ، الا أنها كانت تتميز بخلوها من بقايا الشحم والزيت التى لاتخلو منها صوانى غيره من البائعين ، وكانت مطلية بطلاء أبيض لامع عليه كتابة سوداء بخط جميل

منسق (كبابجى الحسين.. أبو الدهب) وكان هذا يشغل نصف الدائرة وعلى النصف الآخر آية قرآنية هى (وأما بنعمة ربك فحدث) مكتوبة بخط فارسى متأنق يلمع زاهيا بلونه الأحمر فوق السطح الأبيض .

وكنت كثيرا ماأناديه ، وأطلب منه أن يعد لى شطيرة ، فيفتح الحامل الخشبى على الأرض فى تؤدة ، ويضع فوقه الصينية . ويرفع عنها الخرقة البيضاء فما يكاد يبدو تحتها من طعام حتى يهتف من أعماقه :

ــ صلى على النبى ! ..

ثم يبدأ فى اعداد الشطيرة التى طلبتها بطريقة تستشف منها أنه فنان يعشق هذا العمل ويعتز به ، فأنامله تلتقط الكبد المحمرة كمـــا يلتقط البستانى زهرة يقتطفها ، ثم ينظر اليها فى عشق كما تنظر الام الى وحيدها ثم يوسدها شقى الرغيف كجوهرى يوسد ماسة فى حرير ، ويســـوى أطرافها ، ثم يقدمها الى صائحا مرة أخرى :

ــ يابركة الحسين ..!

وقلت له مرة وأنا أشير الى حافة الصينية البيضاء :

ــ اليافطة دى عاجبانى قوى ياأبو الدهب ..

فأجاب وأصابعه تعمل فى الشطيرة :

ــ أمال .. لازم الواحديكون نضيف ، علشان لا مؤاخذة ده أكل .

ــ انما يعنى مالقيتش حاجة تكتبها غير دى ! ..

فقال وهو لايزال منصرفا الى الشطيرة :

ــ وأما بنعمة ربك فحدث ؟ دى آية شريفة ! ..

ــ ما أنا عارف .. بس فين هى النعمة دى ؟ ..

فكفت أصابعه عن العمل فى الشطيرة، ونظر الى فى حدة وهويقول:

ــ أستغفر الله العظيم .. بقى الصينية دى مش نعمة !

فأردت أن أمضى فى عبثى معه فقلت :

ـ ليه ؟ تقولش محل الحاتى يعنى !

ـ سبحان الله يا أستاذ •• دى مش بتجيب رزقى ورزق العيال ؟!••

ـ وهو ده اسمه رزق ••؟!•• أمال اللى بيكسبه واحد زى عبود يبقى اسمه ايه ؟! ••

فنظر الى نظرة سريعة حادة ثم ناولنى الشطيرة دون أن يجيب ، وأسرع فحمل الصينية على رأسه وطوى الحامل الخشبى وعلقه فى ذراعه ثم مضى يطوف بالمناضد مناديا :

ـ الكبد ! ••

ولاحظت أن صوته قد ارتفع قليلا عن المألوف ، وخالطته رعشـــة كأنه مازال منفعلا من تعليقى الجاحد •

وانقضت شهور طويلة، ثم فوجئت ذات ليلة حين رأيت (أبوالدهب) يقبل نحو المقهى وهو يدفع أمامه عربة من الخشب • كانت العربة جميلة رغم صغرها ، فقد طلاها كلها باللون الأبيض الناصع ، حتى العجلتـــان أصابهما حظ كبير من الطلاء اللامع ، وغطى أعلاها بألواح من الزجاج الشفاف يتلألأ بينها (كلوب) يرسل ضوءا ساطعا يثير جزءا من الشارع، وفى منتصف العربة موقد غازى من النحاس الاصفر البراق يرسل لهبه تحت صينية مستديرة ملئت الى منتصفها بالزيت ، وبجوارها صينية أخرى عليها الكبد والكـــلاوى والسجق • على أن أبا الذهب لم ينس أن يزين جدران العربة بالكتابة ، ففى الصدر كتب بخط كبير (كبابجى الحسين ـ أبو الدهب) وتحت هذا كتب بخط احمر مزخرف (واما بنعمـــة ربك فحدث) • كانت هذه هى نفس العبارات التى كتبت فوق حافة الصينية الخشبية ، ونقلها أبو الدهب ـ بعد تكبيرها ـ الى صدر العربة ، ثم أضاف

اليها كتابات جديدة ، فعلى أحد جانبى العربة (هذا من فضل ربى) وعلى الجانب الآخر (ولئن شكرتم لأزيدنكم) هذا الى جانب اسماء الخلفاء الراشدين الاربعة التى كتبها فى أركان العربة الاربعة .

وترك أبو الدهب عربته على باب المقهى ودخل يطوف بالموائد مناديا فى صوته الوقور :

ـ الكبد ! ..

فناديته وهنأته بالعربة قائلا :

ـ مبروك العربية ياأبو الدهب ..! أهى دى اللى اسمها نعمة بصحيح ..

فقال وهو يتطلع اليها فى حنان :

ـ أمال يا أستاذ ! .. دى عروسة .. أنا مسميها العروسة وهى عروسة ..

والحق أن العربة كانت كالعروس فى ثياب الزفاف البيضاء.. ترى كم دفع فيها ؟ وكم ليلة حلم بها؟ وكم من مرة حرم نفسه وأولاده الطعام كى يقتصد ثمنها ؟ !..

وبينما كنت سابحا فى الأسئلة أقبلت سيارة نقل مسرعة ، وكانت أرض الشارع مليئة بالحفر التى تجمع فيها ماء قذر ، فتطاير رذاذ من الطين لوث العربة ، فترك ابو الدهب المقهى مسرعا واخذ يمسح الطين وهو يقول منفعلا :

ـ معلهش ياعروسة .. ! ماتزعليش .. ! أصل السواق أعمى .. وهو أنا يخلصنى تتوسخى ؟! ..

وهكذا ألفت أن أرى (أبو الدهب) كل ليلة يدفع أمامه هذه العربة الجميلة تتصدرها الآية الكريمة (وأما بنعمة ربك فحدث) .

الى أن كان يوم ...

كانت الســـاعة قد جاوزت العــ ـاشرة مســـاء ، وكان الصيف يطرق الابواب فيدفع الناس الى الفرار من المنازل الى المقاهى، وكان المقهى حافلا بالرواد.. أكثرهم يحتلون المناضد المصفوفة على الرصيف أمام المقهى والآخرون يزدحمون داخل المقهى ، والجميع فى لغط وضجيج .. كنت لا أسمع الا (شيش بيش دبش .. اتنين على الريحة .. الخ ..) ووسط هذا الضجيج ارتفع صوت (أبو الدهب) مناديا فى لهجته المأثورة :

ـ الكبد ..!

وناداه كثير من رواد المقهى وطلبوا منه اعداد أكثر من خمس عشرة شطيرة . وكانت صفقة لاتتكرر الا مرات قليلة فى العمر . فانطلق (أبو الدهب) الى عربته التى تقف أمام المقهى وزاد من لهب الموقد الغازى. وأخذ يشوى اللحم فى حماسة ، ولكن لهب الموقد لم يعنـــه على شى كل ماطلب منه . وصاح به بعض الزبائن يتعجلونه فعــاد يزيد من اللهب . وفجأة انفجر الموقد الغازى داخل العربة . واندلعت ألسنة اللهب فيها . وانسكب الزيت المشتعل من الصينية وسال على جوانب العربة يحمل اليها اللهب والدمار ..

حدث كل هذا فجأة ، فلم يتنبه رواد المقهى الا عندما رأوا ألسنة اللهب تتعالى أمامهم والعربة بين فكيها . فأسرع الجميع اليها . ووقف أبو الدهب ذاهلا واجما لم يصرخ ولم يبك .. وانما وقف كالصنم يحــدق فى العربة وهى تذهب طعمة للنار .

وأحاط الناس بالعربة ، وسعى بعضهم يحمل الماء من المقهى لاطفاء الموقد المنفجر . وصاح واحد ممن يكافحون النيران .

ـ مافيش فايدة ياجدعان .. ! النار شديدة قوى علينـــا .. اطلبوا المطافى .

وقال آخر :

ــ دا على ماتيجى المطافى تكون العربيـــة بقت تراب ••! عوضـك على الله يا ابو الدهب •

وكأنما بعثت هذه العبارة بالحياة الى (أبو الدهب) الذى حولته الكارثة الى صنم فصرخ فى جنون :

ــ آه •• ياعروسة ••

ثم اندفع الى كتلة اللهب التى تلتف بالعربة وألقى بنفسه فوقها ، وعندما جذبه الناس بعيدا ، كانت النار قد علقت فى ثيابه ، وغطى الزيت المشتعل وجهه ويديه •

وانقضت شهور لم يظهر خلالها أبو الدهب فى المقهى ، وكدت انساه وأنسى عروسه والكارثة التى حلت بها ، وأقبل الشتاء ببرده وامطاره، وفى احدى الليالى الباردة كنت أجلس داخل المقهى أدخن النارجيلة واستمتع بالدفء اللذيذ الذى يشيع بين ابواب المقهى المغلقة عندما أحسست بتيار من الهواء البارد يسفع ظهرى ، فأدركت أن أحدهم قد فتح الباب ، وقبل أن التفت اليه سمعت صوتا مألوفا يطرق سمعى قائلا فى هدوء ووقار :

ــ الكبد ••!

فتطلعت فى دهشة لأرى (أبو الدهب) أمامى •• بلا لحية وبلا بشرة وجهه مغطى بطبقة من الجلد المحترق•• وكفاه كتلتان من اللحم الاحمر•• وفى يمينه الحامل الخشبى • وعلى رأسه الصينية القديمة •• نظيفة كما كانت ، لم يتغير فيها شيء ، اللهم الا الكتابة التى كانت على حافتها العريضة (وأما بنعمة ربك فحدث) فقد حلت محلها آية أخرى شغلت الدائرة كلها (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير انك على كل شيء قدير) •

المغفل

ما ان جلست الى المقهى القذر حتى واجهتنى لافتـــة على الرصيف المقابل كتب عليها بخط باهت (مطعم الطلبة لصاحبه الحاج محمد الحدق) وما كدت أقرأالاسم حتىابتسمتوهمستلنفسى (الحاج محمد المغفل) فهذا هو الاسم الذى كانت جماعتنا تطلقه عليه أيام كنانسكنفىهذا الشارع منذ ثلاث سنوات ، كنا أربعة نسكن فى شقة واحدة ، اخوان يحتلان غرفة ، وأنا وزميل لى نشغل غرفة أخـــرى • وكان زميـــلى فى الغرفة يدعى عبد البصير ، وهو زميل لى فى الدراسة أيضا اذ كنا طلبة فى كلية الحقوق ، وكان نحيلا قصيرا تلمح فى وجهه بصمات الانيميا الشديدة الناتجة عنسوء التغذية • والحق أنه كان يعيش بطريقة بهلوانية تعتمد الى حد كبير على مطعم الحاج محمد الحدق •

كان أبوه ــ وهو مزارع فقير فى الريف ــ يرسل له فى كل شهر جنيهين ، يدفع منهما ثمانين قرشا ايجار مسكنه ، ويدبر حياته بالباقى على قلته ، كان لايدخن ؛ ولم أضبطه مرة متلبسا بدخول السينما أو بمعـــاملة بوفيه الكلية ، ولكننى كنت واثقا ــبحكم تجربتىــ أن مائة وعشرينقرشا لايمكن أن تكفيه أكثر منأسبوعين ؛ ولكنه كان يعيش بقية الشهر بفضـــل الحاج محمد الحدق هذا الذى اكتشفه مصادفة ، ولكنه اســـتغله الى أقصى حدود الاستغلال •

فقد دخل المطعم مرة ، وطلب طبقا من الفول ورغيفين ؛ واجتهد فى أن يأكل طبق الفول بالرغيفين معا حتى يستغنى بهذه الأكلة عن وجبـــة العشاء ، ثم قام ليدفع ثمن ما أكل الى الحاج محمد الحـــــدق الرابض على

منصته الخشبية بجوار الباب ، وكان هناك ثلاثة زبائن غيره يدفعون حسابهم؛ فناول الحاج ورقة بخمسة قروش وهو يقول :

ــ خمسة تعريفة ياحاج ..

ولكن الحاج وضع الورقة فى الدرج أمامه وأهمله فترة انصرف خلالها للزبائن الثلاثة الذين يحاسبهم حتى فرغ منهم ، ثم التفت الى عبد البصير وأطال النظر اليه ، وأخذ يتحسس لحيته الحمراء قبل أن يقول :

ــ قلت لى كام يابنى ... ؟

ــ خمسة تعريفة ياحاج ... !

ــ آه .... حاضر .. من عنيه . !

ومد يده فى الدرج ليخرج الباقى ، ولكنه أطرق مفكرا ثم نظر الى عبد البصير ثانية وقال :

ــ خمسة تعريفة .. مش كده ... ؟

ــ أيوه ياحاج ...

فمد يده الى عبد البصير وكان فيها سبعة قروش ونصف .. ! .. فقال عبد البصير :

ــ دول كام ياحاج ..؟

ــ سبعة ونص .. انت مش ادتنى نص ريال ..؟

وأحس عبد البصير بضميره يريد أن يغفو .. ولكنـــه قاوم الاغراء وقال :

ــ لا ياحاج .. أنا اديتك شلن مافيش غيره .. انت غلطان ..!

ولكن الحاج قال في اصرار :

ـ استغفر الله العظيم •• ! واذكر ربك اذا نسيت •• انت يابنى اللى غلطان •• أنا عارف انك اديتنى نص ريال •• ابقى خد بالك من فلوسك •• مع السلامة يابنى ••• !!

وكان الاغراء هذه المرة أكبر من أن يقاومه عبد البصـــير ، فترك ضميره يغفو كما يشاء ، وغادر المطعم •

وفى الليل عندما قص على جماعتنا القصة ضحكنا كثيرا ، وقال أحـد الاخوين معقبا :

ـ الراجل لازم غلط بينك وبين زبون تانى •• !

ولكن عندما ذهب عبد البصير الى المطعم فى اليوم الثانى عاد ليقول لنا ان الحاج محمد الحدق قد غلط أيضا هذه المرة ، فقال أحد الاخوين :

ـ لازم الراجل مغفل بقى ••• !!

ومن ساعتها اطلقنا عليه لقب (المغفل) بدلا من (الحدق) •

***

تذكرت كل هذا عندماطالعتنى اللافتة وانا جالس فى المقهى القذر، وثارت أمامى ذكريات التلمذة ، وما كان فيها من عبث ومرح ومرارة وجوع •• فأحسست برغبة عارمة تدفعنى نحو (مطعم الطلبة لصاحبه الحاج محمد الحدق) فقمت اليه وجلست الى احدى الموائد الخشبية التى اكتست طبقـة غبراء من التراب المعجون بالزيت ، وطلبت الفول والخبز كمـا كنت أفعل أيام التلمذة ، وأخذت آكل بشهية مفتوحة رغم أننى كنت قد الفت المطاعم الانيقة فى السنتين الماضيتين منذ تخرجى • ولكن هذا المطعم القذر كان جزءا من ماضى .. رائحته المميزة بالزيت والطعمية ..ومقاعده الخشبية الخشنة ••

وكيزان الماء الصفيح المرصوصة على الموائد .. كل هـذا كان قد امتزج بدمى خلال السنوات الاربع التى أمضيتها طالبا فى الجامعة ..

وكان الحاج محمد الحدق يجلس الى منصته الخشبية بجانب الباب لم يغير منه الزمن شيئا ، فهو مازال نفس الرجـل الربعـة ذى العينين العشواوين واللحية الحمراء والعمامة البيضاء التى تتدلى منها ذؤابة قصيرة على قفاه ، وكان على وجهه نفس الوضاءة والسماحة التى كانت فى نظر الكثيرين ـ ومنهم عبد البصير وأنا ـ مظهرا للسذاجة .

وأطلت النظر الى الحاج وهو يفتح الدرج ليضع فيه أو ليخرج منه نقودا ثم يفتح الدفتر الذى أمامه وينظر فيه فترة اذا كان الزبون ممن لهم حساب مفتوح ، ونظر الحاج فى أرجاء المطعم يتفحص الزبائن فالتقت عينانا وعندئذ وقفت نظراته على فترة كأنما يحمل وجهى اليه بعض الذكريات، ثم ابتسم لى فصحت من منضدتى :

ـ كيف الاحوال ياحاج .... ؟

فازدادت بسمته اتساعا وصاح بى :

ـ مرحبا .. ازيك ياراجل .. ؟

ثم عاد الى النظر فى دفتره الكبير ، وعدت أنا الى طعامى ، وتذكرت قصة أخرى حدثت بين عبد البصير والحاج محمد الحدق . كان ذلك قبل امتحان الليسانس بشهور ، فقد دخل عبد البصير المطعم وأكل ولما تقدم ليدفع حسابه للحاج فوق المنضدة أخرج ورقة بخمسين قرشا ، فتناولهـا الحاج وقلبها بين أصابعه ثم سأله :

ـ ما معكش فكة يابنى ... ؟

ـ ما معيش غيرها ياحاج .. لافكة ولا صحيح ..

فنظر الحاج اليه لحظة متفحصا ثم قال :

ـ أنا ماعنديش فكة •• خليها معايا •• وابقى فوت مرة ثانية •

ـ لكن أنا ماممعيش غيرها ••

ـ يلزمك كام فكة لحد الصبح ؟

ـ نص ريال •

فأعطاه الحاج نصف ريال وهو يقول :

ـ يبقى لك أربعين قرش •• انت مش مستأمنى ••• ؟

ـ العفو ياحاج ••• !!

وخرج عبد البصير وجاء الينا يقص علينا القصة فضحكنا وقال أحـد الاخوين :

ـ اياك الحاج ينسى زى عادته ويروح عليك الاربعين قرش •••

فقال الأخ الثانى وهو يغالب ضحكاته :

ـ يبقى عوض اللى خدته منه بكش •• !

وأمضى عبد البصير ليلة قلقة ، وأمضينا نحن ليلة ضاحكة ، وما كاد الصباح تبدو شمسه فى الشرق حتى انطلق عبد البصير الى المطعم ليفطر ويحصل على القروش الاربعين التى هى رأس ماله الى آخر الشهر ولكن لم يقدر له أن يأخذ الباقى ، فعندما فرغ من التهام طبق الفول وأسرع الى المنصة ليطلب الباقى بادره الحاج قائلا :

ـ لسه يابنى الفكة ماجتش ••• انت كلت بكام ••• ؟

ـ بقرشين •••

ـ طيب مع السلامة ..

وتشاغل الحاج بالنظر فى دفتر الحســـاب الذى أمامه ، فوقف عبد البصير مرتبكا وقال فى اضطراب :

ـ لكن .. ياحاج .. !

فقاطعه الحاج قائلا :

ـ انت ايه يابنى ؟ .. مستخونى .. ؟!

ـ العفو ياحاج .. ! لكن ..

ـ لكن ايه ..؟ أنا حاقيدهم فى الدفتر أهه اذا كنت خايف ...

وامسك الحاج بالقلم وشرع يكتب فى صفحة جديدة (حساب عبد البصير افندى) فقال عبد البصير :

ـ بس انا عايز فلوس .. !

فرفع رأسه عن الدفتر ونظر اليه فى دهشة قائلا :

ـ انت خلصت النص ريال بتاع امبارح ... ؟ عاوز كام .. ؟

وهكذا أخذ عبدالبصير خمسة قروش أخرى وانصرف. وتكرر هذا كل يوم ، فالحاج ليس عنده فكه ، وعبد البصير يأكل يوميا ويأخذ قروشا لمصروفه ، والحاج يقيد ذلك فى دفتره خصما من القروش الاربعين ، حتى رأى عبد البصير أنه قد استهلك المبلغ كله ، فأكل مرة ثم تقدم الى الحاج وأخرج قروشا دفعها اليه ثمنا لما أكل ، ولكن الحاج نظر اليه طويلا وهـو يتخلل لحيته الحمراء بأصابعه ثم قال :

ـ انت لسه لك فلوس عندى يابنى ...

ـ مش معقول ياحاج •• ؟!

ـ ياابنى الدفتر مايغلطش ••• لسه لك ثلاثة وعشرين قرش••• عاوزنى آكل فلوس حرام •• ؟ استغفر الله • !

وظل عبد البصير يأكل طول الشهر والمبلغ لاينفد •• وضمير عبد البصير لايصحو •• والحاج محمد المغفل لايتنبه ••

وفى أول الشهر التالى قال الحاج لعبد البصير :

ـ ايه رأيك ياابنى •• ماتجيب خمسين قرش أمشى بيها شغلى •• واديك بتاكل منها لحد ماتخلص •

ولم يكن أحب الى عبد البصير من هذا الاقتراح •• فنفذه طـــول العام الدراسى ••

* * *

تذكرت كل هذا وأنا أتناول الفول وأخذت أنظر الى الحاج وهـو يقلب فىالدفتر أمامه ، وابتسمت•• كان أكبر مغفلفى نظرى••! وعندما تقدمت الى منصته لأدفع الحساب تخلل لحيته الحمراء بأصابعه وابتسم ثم سألنى :

ـ ازى صاحبك عبد البصير ••• ؟

ـ انت فاكر ياحاج •• ؟

ـ وحد ينسى ياابنى • ؟ دا انتم أولادى •• ! هو اشـــتغل والا لسه •• ؟

ـ دا بقى محامى كبير ••• !

ـ طيب لما تشوفه قول له عمك الحاج محمد الحدق بيســلم عليك وبيقول لك ان له عندك سبعة جنيه ونص •••

ففتحت فمى فى دهشة وقلت :

ـ بتوع ايه ياحاج .. ؟

ـ كان بياكل بيهم .. !

ـ شكك .. ؟

ـ هو مايعرفش انهم شكك ... أنا كنت بأغالطه فى الحساب .. هو معذور اللى ماجابهومش لحد دلوقت .. !

ثم ابتسم وأطرق الى الارض وعاد يعبث بلحيته الحمراء ومضى يقول :

ـ أصله كان غلبان قوى .. كان باين عليه مش لاقى ياكل ويتعلم مع بعض ، فقلت أأكله من غير ماأجرح احساسه .. علشان يعرف يتعلم ويبقى بنى آدم ..

ثم تطلع الى بعينين عشواوين واكتسى وجهه ذكرى ألم قديم ... وهمس :

ـ زمان .. زمان قوى .. كنت مجاور فى الازهر ومافلحتش .. علشان ماكنتش لاقى آكل .. حتى الجراية اللى كانوا بيدوهـا لى كنت بأحوش نصها وأديه لابويا وامى ... ياسلام .. كان زمانى دلوقتى شيخ فى جامع ولا قاضى شرعى .

وساد صمت عميق .. كانت عيوننا هى اللى تتحدث وتتفاهم.. وفجأة تبددت من وجهه ذكرى المأساة القديمة وعاد صوته يعلو قائلا فى صلابة :

ـ ماتنساش تقول له يابنى .. حرام عليه ياكل المبلغ ده عليه .. مع السلامة ... !

حضرة المفتش

ـ مفتش ..

همس بها الخادم الخاص بحجرة حضرة الناظر فى أذن خليل الفراش وهو يتناول منه صينية القهوة ، فسأل هذا هامسا :

ـ مفتش ايه ... ؟

ـ عربى ...

فأسرع خليل وبلغ الانذار الى الريس درويش كبير الخدم فى مقر قيادته تحت السلم ، ولم يضيع الريس درويش لحظة واحدة ، فنـــادى مساعده وأمره بالمرور على مدرسى اللغة العربية فى الفصول وتبليغهـــم الانذار ، ولم تمض دقائق حتى سرت حركة نشيطة مفاجئة فى المدرسة، فكان أربعة من المدرسين ينظفون السبورات فى وقت واحد ، ثم يلقون الى التلاميذ بتعليمـــاتهم .. انت غبى فاجلس فى آخر الحجرة .. وانت لم تحفظ المحفوظات فاخرج واختف فى دورة الميـــاه .. ثم بدأت الحركة النشيطة تسرى الى الاصوات ، فانطلقت كلها فى وقت واحد تجلجل فى أرجاء المدرسة :

ـ واجب النصب على الاستثناء ...

ـ قالت الارنب لجماعة الوحوش ...

ـ وما أنا ممن تأسر الخمر لبه ..

وصافحت هذه الاصوات مسمعى الريس درويش فى مقر قيادته

تحت السلم فاطمأن الى أن انذاره بلغ الى جميع المدرسين .. ففتل شاربيه في سرور واعتزاز وعاد الى مقعده الخشبي ..

وفجأة .. فتح باب في أقصى الردهة المظلمة .. وأطل رأس نحيل أصلع .. عرف فيه الريس درويش رأس السعداوى افندى .. فهب مسرعا اليه .. وهمس في أذنه :

ـ فيه مفتش :

فأطرق السعداوى افندى الى الارض وهمس :

ـ هات اسبرينه وكباية ميه ..

ـ بأقول لحضرتك فيه مفتش .. مفتش .... !

ـ أيوه ياأخى .. عرفنا ..! بس ابعت الاسبرين والميه .. دماغى بتوجعنى ..

كان الاستاذ السعداوى عملاقا في الأربعين من عمره ، ولكنه كان وديعا لطيفا . . أحب التلاميذ نظراته العطوفة وصوته الهادىء الحازم ... وطربوشه الذى يدفعه دائما الى الخلف فيكشف عن رأس يتنازعها الصلع والشيب ، كان يذكرهم بآبائهم فأحبوه كما يحبونهم .. وكان ناظر المدرسة يحبه لأنه لم يناقشه مرة واحدة خلال السنوات التى عمل فيها تحت رئاسته، أما المدرسون والخدم فكانوا يحبونه أيضا، وان انقسموا حوله فريقين .. أحدهما يثق بطيبته الوادعة .. والآخر يشفق عليه ويرثى له لهذه الطيبة المستكينة ، على أن الجميع كانوا يلمحون في حياته ظلال مأساة خفية لم يتحققوها .. وان ردها بعضهم الى أنه ظل متزوجا خمسة عشر عاما لم ينجب خلالها الامنذ سبعة أشهر .. عندما رزق بابنه الوحيد عبد الحى .. ويدللون على رأيهم هذا بذلك التحول الذى طرأ

عليه منذ الحين .. فقد أصبح وكأنمـــا ارتدت اليه حيويته .. فعـــاد الى عينيه بريقهما .. والى قامته استقامتها .. والى شفتيه بسمة ثقة وأمل غير تلك البسمة اليائسة المستسلمة التى كانت تكسوهما دائما .

وعندما عاد اليه الريس درويش بالاسبرين والماء .. تناولهمـــــا شاكرا ثم سأله :

ـ مفيش حد سأل على فى التليفون ؟ ..

فهز درويش رأسه نافيا : فقال السعداوى :

ـ قول لحضرة الناظر يبعت لى أول التليفون ما يطلبنى ..

ثم أغلق عليه باب الفصل واجما كما فتحه .. كان التـــلاميذ فى الفصل هادئين منكبين على كراساتهم يكتبون موضوعا انشائيا فى صمت .. ولكن أحدهم رفع رأسه وقال له :

ـ سلامتك ياأستاذ ...

ـ الله يسلمك ياابنى .. فيه عندكم مفتش .. جايز ييجى دلوقت فانتبه التلاميذ وكفوا عن الكتابة وسرى لغط بينهم :

ـ مفتش .. ؟ فيه مفتش .. الاستاذ بيقول فيه مفتش .

فقال السعداوى افندى فى حزم :

ـ كملوا موضوعكم .. دى حاجة مالكوش دعوة بيها .. حيخش يسألكم كلمتين ويطلع .. آنتم طبعا مذاكرين .. ؟

ـ طبعا ياأستاذ ...

قالوها جميعا .. فاطمأن السعداوى افندى وقال :

ـ خلاص .. خلصوا الموضوع اللى بتكتبوه ..

ثم عاد الى مقعده واجما ساهما، وجلس ينظر الى التلاميذ وهله ، ثم انصرف عنهم الى شيء بعيد عن المدرسه والتلاميذ كل البعد .. انه ابنه عبد الحى .. ذلك الوليد الذى لم يقطع من مراحل العمر الا سبعة شهور .. ثم هاجمه مرض خطر يوشك ان يرغمه على التخلص من بقية مراحل العمر .. لقد سهر طوال الليل مع زوجته بجانب فراشه .. لم يراود الكرى جفنيه لحظة واحدة .. ثم تركه فى الصباح لرعاية زوجه ورحمة ربه .. وجاء الى المدرسة ليحدث التلاميذ عن المبتدا المرفوع بالابتداء والخبر المرفوع بالمبتدا .. ولكن السهر الطويل خلال الليل ، والقلق المر على حياة ابنه أعجزاه عن حديث المبتدأ والخبر .. فكتب عنوانا لموضوع انشائى .. وطلب من التلاميذ ان يكتبوا فيه .. وبذلك أتاح لنفسه فراغا يخلو فيه الى نفسه ويفكر فى ابنه عبد الحى .. لو مات هذا الوليد لكان ذلك كارثة لاتحتمل ..فقد أمضى تسع سنوات متزوجا ولم ينجب حتى تقطع قلبه حسرة وألما .. ثم رزقه الله بهذا الغلام منذ سبعة أشهر .. فهل يحرمه الموت منه .. ؟ أليست كارثة لاتحتمل .. ؟ لاشك فى أنه لن يموت ... ! والا .. فلماذا رزقه الله به ان كان يريد أن ينتزعه منه ولما يزل وليدا..؟.. لاشك فى أنه سيعيش ، وسيكبر ، وسيدخله المدرسة ويرعاه حتى يصبح طبيبا .. أو يصبح مهندسا .. ؟ ..أيهما أفضل... ؟

ـ ياأستاذ ..

وانتبه السعداوى أفندى مذعورا ..فاذا بتلميذ يقف أمامه فى أدب.

ـ نعم ..؟ عاوز حاجة ياابنى ..؟

ـ حضرتك بتنام .. وباين عليك تعبان .. اتفضل استريح فى أودة المدرسين واحنا نقعد ساكتين لحد الجرس مايضرب ..

وهم السعداوى افندى بأن يثور •• ولكن التلميذ كان ينظر اليه فى حب وعطف جعلاه يخجل من الثورة : فربت كتفه وهو يقول :

ـ معلش يابنى •اقعد علشان المفتش جايز ييجى ••

ـ لكن حضرتك تعبان قوى •• لازم تأخذ أجازة ••

ـ معلش ••• معلش ••

وعاد الصبى الى مقعده •وأخذ السعداوى أفندى يفكر فى اقتراح الصبى •• لماذا لم يأخذ اجازة •• ؟ لقد فضل فى أول الصباح أن يحضر الى المدرسة فرارا من منظر ابنه وهو يتلوى ألما ويعجز عن التعبير عن ألمه الا بصراخ مختنق •• ولكنه اصبح الآن اشد قلقا عليه •• اتراه مات•؟ ربما ••• ! ولكن •• لقد طلب من زوجته ان تتصل به تليفونيا ان حدث شيء ، وهى لم تتصل به بعد ، فلا بد أنه لم يمت ، ولا يزال يتلوى من الالم •• ويصرخ ذلك الصراخ المختنق •• لابد أن يراه •• لابد أن يذهب اليه •• سيطلب اجازة ويغادر المدرسة بعد انتهاء هذه الحصة ••• ولكن حضرة المفتش موجود ••• وقد يعرقل وجوده الاجازة •• لا •• لن يعترض على خروجه •• فهو انسان وله أولاد •• ثم انه رجل طيب عرفه فى السنوات الماضية التى فتش فيها عليه وهو يفهمه ويقدره •• لا •• لن يعترض على الاجازة •• لماذا لايطلبها الان ؟ لماذا ينتظر انتهاء الحصة بعد نصف ساعة ، وقد يموت ابنه خلال هذا الوقت • ينبغى أن يخرج الانَ •• سيذهب الى حضرة الناظر ويخبره أن ابنه •••

وقطع عليه أفكاره طرقة عنيفة على الباب •• ثم انفتح الباب على مصراعيه ووقف على عتبته رجل لم يسبق للسعداوى أن رآه من قبل •• كان قصيرا نحيلا •• هضيم الوجه أحمر البشرة والشعر ••يفتل شاربيه الى أعلى ويلبس طربوشاقانى الحمرة طويلا شديد الطول •• وسترة ضيقة

تحت الصدر •• وسروالا ضيقا حول الساقين ، وقف بالباب يحملق فيه بعينين ضيقتين عابستين فوقهما منظار زجاجى رخيص ، وقد أشهر فى يمناه قلما طويلا من الرصاص وفى يسراه (نوتة) صغيرة سوداء •

لم يكن هو المفتش الذى يعرفه السعداوى ، ولكن القلم والنوتة المصوبين الى وجهه قطعا عليه كل شك •• فهب من مقعده كالملسوع، وصاح بالتلاميذ :

ـ قيام •• !

وأسرع يستقبل حضرة المفتش محييا :

ـ أهلا وسهلا •• اتفضل •• اتفضل •• أهلا وسهلا •

ولكن حضرة المفتش لم يتفضل •• وانما ظل واقفا بالباب يستعرض التلاميذ الواقفين فى انتظار أمر يصدر لهم بالجلوس ، ومد السعداوى افندى يده •• فصافحه حضرة المفتش دون أن ينظر اليه •• كانت عيناه معلقتين بتلميذ يقف فى آخر الفصل •• وكأنما لم يعجبه شىء فى التلميذ فاختطف أصابعه من يد السعداوى افندى •• ثم صوب القلم نحو هذا التلميذ وهو يصيح به :

ـ ياولد •• قف معتدلا •• انفخ صدرك •• ! ارفع رأسك !

ونظر التلاميذ بعضهم الى بعض فى دهشة •• كان حضرة المفتش نموذجا غريبا عليهم •• فهم قد رأوا كثيرا من المفتشين من قبل ، وكانوا يتفاوتون بين وداعة الارنب وجفوة الذئب، ولكن لم يكن بينهم قط طاووس كهذا الذى يقف أمامهم •• وهمس أحدهم :

ـ هو مفتش عربى والا ألعاب ؟

فسرت ضحكات خافتة بين التلاميذ •• وكان السعداوى افنـــدى يعرفهم حق المعرفة •• فهم لايوقرون من لايعجبهم •• من الواضـــح أن حضرة المفتش لم يعجبهم •• فخشى السعداوى أن يحدث مالا تحمد عقباه فصاح بهم :

ـ جلوس ••

ولكن حضرة المفتش لم يسترح الى هذا فصاح بهم بدوره :

ـ قيام •• لاتجلسوا حتى آذن لكم •

وعاد التلاميذ للوقوف ولم يستطع أكثرهم أن يغالب الابتسام • • وصدرت ضحكة خافتة من تلميذ فى آخر الفصل•• والتقطت أذن حضرة المفتش هذه الضـــحكة •• فأسرع يقفز الى الركن الذى صدرت منـــه الضحكة وقد أشهر فى يمناه قلمـــه وفى يسراه مفـــكرته •• وارتبك السعداوى افندى•• فقد أدرك أن زمام الامر أوشك أن يفلت من يده•• وقال تلميذ يجلس أمامه :

ـ تعرف ياأستاذ •• دا عامل زى السجيع بتاع السيما ••

فأومأ السعداوى اليه مؤنبا •• ولكن بعض التلاميذ سمع هذه العبارة فضحك •• فتوقف حضرة المفتش قبل أن يصل الى نهاية الفصل والتفت خلفه صائحا :

ـ التلميذ الذى ضحك يقف ••

ولم يقف أحد بطبيعة الحال •• فعاد حضرة المفتش يصيح وقد أشهر قلمه ومفكرته :

ـ قلت ان التلميذ الذى ضحك يقف ••

وهم السعداوى افندى بالتدخل لولا أن طرق الباب ثم دخل الريس درويش وقال للسعداوى افندى :

ـ التليفون ياأستاذ سأل على حضرتك ••

وغاص قلب السعداوى افندى •• هل مات ابنه ؟ •• ونسى كل ما حوله •• وهم بالانطلاق مهرولا من الباب •• لولا أن مد درويش يده بالورقة قائلا :

ـ وحضرة الناظر بعت لك دى ••

وتناول من درويش الورقة بيد ترتجف والتهم سطورها بسرعة •• فقرأ :

«الاستاذ السعداوى•• حرمك وابنك عند الدكتور علوان•• اتصل برقم ٩٣٥٢٧» •

لم يمت ابنه اذن••! حمدا لله••! ولكن•• لماذا ذهبت به زوجته الى الطبيب الان •• فى حين أنه وعد بزيارته فى المساء •• لابد أن حالتــه خطرة •• وينبغى أن يتصل تليفونيا بالطبيب •• ولكن •• حضرة المفتش ! هل يتركه فى الفصل وحده••؟ انه واثق أنه لو تركه منفردا لحظة واحدة لحدثت مذبحة بينه وبين التلاميذ •

وكان دخول الريس درويش والذعر الذى ارتسم على وجــــه السعداوى افندى قد اجتذبا آنتباه كل من المفتش والتلاميذ •• فســـاد صمت قلق قطعه حضرة المفتش قائلا :

ـ أحدث شىء ياأستاذ ؟

فقال السعداوى مضطربا :

ـ ابنى •• ابنى ياحضرة المفتش •• حالته •••

فقاطعه المفتش :

ـ لماذا تتحدث باللغة العامية ؟

فبهت السعداوى افندى •• ومضى حضرة المفتش قائلا :

ـ يجب أن تلتزم الفصحى فى حديثك أمام التلاميذ لتكون قدوة لهم

وأوشك السعداوى أن ينفجر ليقول له ان ابنه يموت •• وان هذه هى مشكلته •• وان الحديث بالفصحى لن ينقذ حياته والحديث بالعامية لن يقضى عليه •• أوشك السعداوى أن يقول كل ذلك لولا أن حضرة المفتش سأله :

ـ درس اليوم ؟

ـ انشاء ••

فتطلع حضرة المفتش الى السبورة •• كان مكتوبا عليها «وصف يوم مطير» فصوب قلمه الى أحد التلاميذ قائلا :

ـ اقرأ ماعلى السبورة •

فوقف التلميذ معتدلا •• نافخا صدره •• رافعا رأسه •• ثم قرأ فى صوت جهير :

ـ وصف يوم مطير ••

ولكن حضرة المفتش صاح به :

ـ افتح عينيك جيدا •• واقرأ ماأمامك •••

فعاد التلميذ يقول فى صوت أكثر جهارة :

ـ وصف يوم مطير ..

ـ قلت لك افتح عينيك واقرأ ماأمامك بالضبط ..

ودهش السعداوى افندى .. وحدق التلاميذ فى السبورة .. كان ماعليها هو ماقرأه التلميذ تماما .. وقال التلميذ :

ـ اللى مكتوب قدامى (وصف يوم مطير) ..

فصاح به حضرة المفتش :

ـ هل هذه يوم ياأعمى ؟

ـ نعم يوم ..

ـ هل الياء تحتها نقطتان أم نقطة واحدة ؟ انها تقرأ هكذا ، «وصف بوم مطير» .

وانفجر التلاميذ ضاحكين .. ولكن حضرة المفتش صرخ فيهم كالغضنفر .. فاحتبست الضحكات فى أفواههم .. ومضى هو قائلا :

ـ تعلموا أن تقرأوا ما أمامكم بالضبط .. لاتقلبوا البوم يوما .. فرفع أحد التلاميذ أصبعه وسأل :

ـ وهى البومة بتمطر ؟

ـ هذا هو السؤال ..! كان ينبغى عليك أن تسأل الاستاذ هل البوم يمطر .. حتى يضع نقطة تحت الباء .

واضطر السعداوى افندى أن يستند الى أقرب حائط اليه حتى لايسقط مغمى عليه .. وقال حضرة المفتش :

ـ استمر فى درسك يا أستاذ •• واعطنى كراسة التحضير •

وناوله السعداوى كراسة التحضير ذاهلا •• كان عقله يقفز مترنحا بين ابنه المحتضر والبومة التى تمطر والدرس الذى ينبغى أن يشرحه للتلاميذ •

وفجأة دخل الريس درويش مرة أخرى •• فعاد قلبه يغوص جزعا وسأله :

ـ فيه حاجة ياريس ؟

ـ التليفون عاوز حضرتك تانى ••

ـ طيب •• أنا جاى •

وهم بالاستئذان للخروج •• ولكن حضرة المفتش صاح به وهو يلوح بكراسة التحضير فى وجهه :

ـ ماهذا يا أستاذ ؟

ـ خيرا ••؟

ـ درس اليوم الذى أثبته فى الكراسة هو المبتدأ والخبر •• وأنت تدرس انشاء ••

فتلعثم السعداوى قائلا :

ـ أصل اضطررت أغير الدرس •• علشان •• علشان •• ابنى •• ابنى ••

فقاطعه حضرة المفتش فى حزم :

ـ ابنك هو الذى غير الدرس من نحو الى انشاء ؟

ـ ياحضرة المفتش • • بعدين أفهم حضرتك •• بس دلوقت ••لو سمحت أشوف التليفون •• علشان ••

فقال حضرة المفتش مقاطعا :

ـ انت فى عملك ياأستاذ •• وينبغى ألا تخرج من الفصل •••

ـ أصل ياحضرة المفتش •• ابنى •• ابنى حالته ••

ولكن حضرة المفتش صرخ فى الريس درويش :

ـ اذهب وقل لمن يطلبه انه مع حضرة المفتش •• وليتصل به فيما بعد ••

وخرج الريس درويش •• تاركا السعداوى افندى ينتفض قلقا وجزعا •• فينبغى عليه أن يطيع حضرة المفتش ولا يغضبه •• فانه لوكتب ضده تقريرا سيئا •• لحرم من الترقية التى ينتظرها هذا العام •• وفى نفس الوقت ينبغى أن يطمئن على ابنه •• فهذا الاتصال التليفونى الثانى يحمل له خبرا بغير شك •• فما هو هذا الخبر •• ؟ هل مات عبد الحى •• يجب أن يعرف •• ويجب ألا يغضب حضرة المفتش فى نفس الوقت •• فماذا يفعل •• نعم •• ماذا يفعل ؟

وأنقذه الجرس من حيرته • • فقد دق معلنا انتهاء الحصة•• فهرول خارجا من الباب •• ولكن حضرة المفتش صاح به :

ـ ياأستاذ •••

ـ نعم ••

ـ أريد كراسات التلاميذ •

ـ حاضر •• بس أشوف التليفون •

ـ ياأستاذ اجمع كراسات الفصل الآن •• قبل أن تخرج منفضلك وأحضرها لى فى حجرة الناظر •

ثم تركه وخرج •

وضاق صدر السعداوى افندى •• انه لن يهرب من المدرسة بالكراسات ، فلماذا يصر حضرة المفتش على جمعها الآن •• وهم بأن يرفض وليحدث مايحدث •• لولا أن دخل درويش وناوله ورقة أخرى قرأ فيها :

«الاستاذ السعداوى •• حرمك وابنك عادا الى البيت •• ويحسن أن تذهب اليهما» •

لقد ضاعت عليه فرصة الحديث التليفونى فليس ثمة ما يدعو للاصطدام بينه وبين حضرة المفتش •• ليجمع له الكراسات كما طلب ثم يترك له المدرسة ويذهب الى ابنه •

وفى دقائق قليلة كان يحمل تحت ذراعه كوما من الكراسات ينطلق به الى حجرة الناظر •• وطرق الباب ودخل •• كان حضرة المفتش يجلس الى منضدة فى ركن الحجرة وأمامه قلمه ومفكرته ومنظاره • • فوضع أمامه الكراسات فى صمت •• وذهب الى حيث يجلس الناظر خلف مكتبه قائلا :

ـ تسمح لى ياحضرة الناظر أخرج علشان أشوف ابنى •

فقال الناظر فى عطف :

ـ هو عنده ايه ياأستاذ سعداوى ؟

ـ تيفوئيد ياحضرة الناظر •

ـ ربنا ياخد بيده •• عنده كام سنة ؟

ـ سبعة أشهر بس •

ـ ياخبر •• صغير كده ••؟ طيب وجيت ليه النهارده ••؟ اتفضل روح •• ربنا يطمنك عليه •• بس استاذن من حضرة المفتش •

ـ طبعا ••

وسار الى المنضدة التى يجلس اليها حضرة المفتش فرآه غارقا فى أكوام من كراسات التلاميذ •• وقد أمسك بواحدة منها وظل ينظر الى صفحة فيها مدققا فاحصا •• يعرضها على الضوء تارة •• ويظللها بيـــده تارة أخرى •• ثم خلع منظاره •• وأخرج من جيبه عدسة مكبرة من نوع رخيص •• ونظر خلالها فى صفحة الكراسة •• فطفر قلب سعداوى افندى جزعا •• واقترب منه ثم انحنى معه ينظر فى الكراسة •• فقال حضرة المفتش وهو يشير الى كلمة :

ـ اقرأ هذه الكلمة ياأستاذ ••

وقرأ السعداوى افندى الجملة كلها :

ـ وظل هذا الأمل يداعب أحلامه •

ثم سأل :

ـ مالها ياحضرة المفتش •• أظن دا خيال جميل وتعبير أجمل •

فقال حضرة المفتش وهو يضع اصبعه تحت كلمة (أحلامه) :

ـ ماهذا الذى فوق الألف ؟

ـ همزة ••

ـ أهذه همزة أم فتحة ؟

ـ ياحضرة المفتش •• دى همزة •

ـ ولكنها تقرأ على أنها فتحة .

ـ وايه يخلينا نقول عليها فتحة .. دى همزة والله العظيم.. أجيبلك الولد تسأله ؟

فألقى حضرة المفتش بالكراسة أمامه وتناول غيرها فى صمت ، فقال السعداوى :

ـ أنا عاوز أستأذن وأخرج علشان ابنى ...

فقاطعه حضرة المفتش فى صبر نافد :

ـ ألم أطلب منك ياأستاذ أن تلتزم الفصحى فى حديثك ..

ـ حاضر .. من عنيه .. بس أنا خارج دلوقت .

ـ انتظر .. فأنا أريدك .

ـ بس ابنى ياحضرة المفتش حالته ...

فقاطعه فى حزم :

ـ انتظر من فضلك .. ربع ساعة فقط .. اجلس هنا .

فجلس السعداوى فى صمت .. وفتح حضرة المفتش مفكرته وتناول قلمه وبدأ يحصى أشيافى صفحة الكراسة ويدون الرقم فىالمفكرة ثم يقلب الصفحة ويمضى فى الاحصاء .. ودهش السعداوى ، فقال فى تململ :

ـ ياحضرة المفتش .. عاوز أمشى .. ابنى ...

فقاطعه المفتش دون أن يرفع عينيه عن الكراسة :

ـ قلت لك ربع ساعة ، لقد جعلتنى أخطىء فى العدد •• من فضلك لاتقاطعنى •••

وانقضت الدقائق ثقيـــلة كثيبة •• وحضرة المفتش لا يكف عن احصاء هذا الشيء المجهول •• ثم يدون أرقاما فى مفكرته •• والسعداوى افندى يردد بصره بين ساعته •• وبين التليفون على مكتب الناظر •• وبين حضرة المفتش المنكب على الاحصاء فى صمت وهدوء •

ثم دق جرس التليفون •• فدق معـــه قلب الســـعداوى جزعا ، واشرأب بعنقه الى يد الناظر وهى تتناول السماعة •• ثم سمعه يناديه :

ـ التليفون عاوزك ياأستاذ سعداوى •

ووثب السعداوى الى التليفون وصاح فى لهفة :

ـ ايه ••؟ خير ••؟ يانهار اسود ••! خلاص ؟!

وألقى بالسماعة فى انفعال • • ثم اندفع الى الباب يريد أن يخرج ولكن حضرة المفتش صاح به :

ـ ياأستاذ سعداوى•• لقد وجدت فى كراسة واحدةسبعا وثلاثين همزة غير واضحة •

وتوقف السعداوى •• ونظر الى حضرة المفتش وقد التمعت عيناه غضبا•• لقد مات ابنه •• فماذا يهمهالآن••؟ انه لايريدالترقيةالمنتظرة بل انه لايريد أن يعيش على الاطلاق •• وسار الى المنضدة فى هـــدوء مصطنع وهو يقول :

ـ سبعة وثلاثين همزة ؟ مرة واحدة •• وريني كده •

وتناول كوم الكراسات من على المنضدة •• ورفعه بين يديه ••ثم قذف به حضرة المفتش •

***

وشاهد الخدم منظرا لم يسبق لهـــــم رؤيته ••• حضرة المفتش يجرى الى الفناء •• وخلفه الاستاذ السعداوى يقذفه بمحبرة •• وحضرة الناظر يصيح :

ـ ياأستاذ سعداوى •• مش كده•• عيب ياأستاذ ••• مايصحش•• اسمع بس •• علشان خاطرى •••

تحت الحذاء

عرفت عبد العزيز منذ عشرين عاما ، وانا تلميذ فى السنة الثانية الثانوية باحدى المدارس الحرة فى ضواحى القاهرة • كان زميلى فى الفصل ، وكان يتمتع بمكانة مرموقة بيننا جميعا ، ولم يكن ذلك لتفوقه فى دراسته فقد كان ترتيبه الاخير دائما، ولم يكن ذلك لتفوقه فى الالعاب الرياضية ، فقد كانت هذه الالعاب ترفا لم تعرفه المدارس الحرة فى تلك الايام • ولم تكن مكانته لكرم الاخلاق ، فقد كان شرسا مشاكسا متكبرا، فضلا عن اننا كنا فى سن لايسمح لنا باحترام شخص لكرم أخلاقه ، انما كنا نعجب بعبد العزيز ونكبره لانه كان التلميذ الوحيد فى الفصل الذى يلبس (جاكتة) فوق القميص وجوربا تحت الحذاء •

كان كل التلاميذ ـ وأنا منهم ـ نكتفى بلبس قميص فوق السروال، لانغير هذا الزى صيفا ولا شتاء ، فاذا قسا البرد فى ديسمبر ويناير، أسرع أهلونا بوقايتنا من خطر الالتهاب الرئوى بقميص آخر قديم نلبسه تحت القميص الأول ، لم نكن نعرف الجاكتات والجوارب ، فالجاكتة يغنى عنها قميصان ، والجورب ترف لا فائدة منه ، مادام الحذاء يكفى وحده لوقاية القدم من تراب الطريق • كنا فقراء ، جمع شملنا فى هذه المدرسة عجز آبائنا عن دفع مصروفات المدارس الأميرية وكانت عشرين جنيها آنذاك •

ولم يكن أساتذتنا أحسن حالا منا •• كانوا جميعا ممن فشلوا فى امتهان مهنة أخرى ناجحة ، وقد جمعهم صاحب المدرسة ـ وهو ناظرها فى نفس الوقت ـ دون نظر الى مؤهلاتهم أو ثقافتهم ، فلم يكن منهم واحد يحمل شهادة عالية ، بل كان الكثير منهم ممن عجزوا عن اتمام دراستهم

بنجاح .. وكان سبب عجزهم عن مواصلة التعليم هو نفس السبب الذى حرمنا من لبس (الجاكتات) والجوارب .. الفقر .

ورغم ان هذه الصفة التى نشترك فيها مع الأساتذة كانت كفيلة بأن تدفعهم الى العطف علينا والشفقة بنا .. الا أنهم ـ لسبب لم نعرفه آنذاك ـ كانوا قساة القلوب .. يتلذذون برؤيتنا ونحن نتعذب ونضرب .. بل ان مصطفى أفندى مدرس اللغة الانجليزية كان يدخل الفصل مقطبا ضيق الصدر ثائر الأعصاب . يتلمس خطأ تافها لأى واحد فينا .. فينهال عليه ضربا عنيفا ويذكر من خلفاه بأقذع السباب .. ثم يرسله لحضرة الناظر ليستأنف عملية ضربه .. فاذا فعل ذلك انبسطت أسارير وجهه وهدأت أعصابه الثائرة .. فاذا حدث ان انتهت الحصة دون أن يتصيد تلميذا ـ وهذا نادر ـ خرج من الفصل يزفر من الغيظ وهو يقول :

ـ نفدتم المرة دى من ايدى يا ...

وما بعد (يا ..) هذه كان نعتا خاصا بمن أنجبونا .. وخلفونا لمصطفى أفندى .

ومع أن مصطفى أفندى كان يلبس (جاكتة) وجوربا مثل عبد العزيز ، الا أنه كان يكرهه ويحقد عليه حقدا شديدا ، لم يكن يضربه ، ولكنه كان يتحين الفرص ليسلقه بلسانه المسموم بل كان يخلق هذه الفرص خلقا . ولعل السبب الذى نجاه من عصاه هو شراسته ، .

وأنا أذكر أن أول مرة وقعت فيها عينا مصطفى أفندى على عبد العزيز أطال النظر اليه ثم قال :

ـ انت ياواد ياللى مسبسب شعرك .. قف ..

ووقف عبد العزيز .. فقال مصطفى أفندى :

ـ تعال ياخويا عندى هنا ..

وخرج اليه عبد العزيز ووقف أمامه فى قحة .. فقــال مصطفى أفندى :

ـ انت عامل فى شعرك كده ليه ؟ ومحزق الجاكتة قوى على ايه ؟..

فقال عبد العزيز فى صوت عالٍ :

ـ وانت مالك ..

ـ وأنا مالى ياابن ..

فقاطعه عبد العزيز :

ـ اوعى تجيب سيرة أبويا .. انت عارف بيشتغل ايه ؟

ـ يعنى بيشتغل ايه ياسى زفت ..

ورفع عصاه ليهوى بها على عبد العزيز .. ولكن هذا أمسك بالعصا قبل أن تلمس جسده .. وانتزعها من يد مصطفى افندى وهو يقول:

ـ انت فاهم ايه ؟.. دانا مرفود من المدارس الاميرية علشــــان ضربت ناظر وأربعــة مدرســين .. ! .. تيجى انت على آخر الزمن تضربنى ..؟

وتضاءل مصطفى أفندى عقب هذه العبارة .. فلم يحاول استرجاع العصا .. وانما انطلق من الفصل صائحا بأعلى صوته :ـ

ـ هاتوا حضرة الناظر .. الحقونى بحضرة الناظر ..

وجاء حضرة الناظر فأخذ عبد العزيز الى حجرته ، ولم نعرف ماذا حدث بينهما ، ولكن عبد العزيز عاد بعد ساعة مبتسما ، ورفض أن يجيب على تساؤلنا الا بقوله :

ـ أمال انتم فاهمين ايه ؟ •• مش كل الطير اللى يتاكل لحمه ! ••

وعقب هذه الحادثة لم يكف مصطفى أفندى عن السخرية بعبدالعزيز وكان عبد العزيز يتحمل صامتا ويقول لنا انه يسمح لمصطفى افندى بأن يفعل به مايشاء ماعدا ضربه وسب والديه ••

الى أن كان صباح ••

كانت الحصة الثالثة هى حصة اللغة الانجـــليزية •• وكان مصطفى أفندى قد عقد امتحانا لنا فى الحصة السابقة •• فدخلنا الفصل ونحن نحس باكتئاب وانقباض •• بعضنا يدلك يديه استعدادا لعصا مصطفى أفندى •• وبعضنا يكاد يبكى خوفا من العقاب الذى ينتظره ، على أن عبد العزيز كان أهدأنا وأثبتنا قلبا •• وعندما دخل مصطفى أفندى يحمل أوراق الامتحان فى يد •• ويجر عصاه الطويلة فى يده الأخرى •• هب جميع التلاميذ واقفين فى سرعة واضطراب •• ماعدا عبد العزيز الذى قام متثـــاقلا •• وتعلقت عيوننا بوجه مصطفى أفندى فى اشفاق •• وأخذ هو يتطلع بعينيه الذابلتين الى وجوهنا فردا فردا دون أن يأذن لنا بالجلوس ، ثم وضع أوراق الامتحان على منصته وعاد يتطلع الينا فى صمت •• ووجفت قلوبنا وتصبب العرق من جباهنا •• وبدأت عضلات وجوهنا تختلج فى تشنج • وأخيرا أخذ مصطفى أفندى يتكلم •• وكان صوته هادئا منخفضا الا أنه كان يدوى فى آذاننا كالرعد •• وبدأ كلامه بالتحسر على حظه الذى جعله مدرســا لأمثالنا من البهائم ثم أخذ يندب تعبه الذى أرقناه على الأرض كما يراق الماء هدرا •• وأخذ يرسم لنا مستقبلنا المظلم ويقسم بأغلظ الايمان أن أحسن تلميذ فينا سينتهى به الأمر الى أن يعمل بائعا متجولا •• أو كناسا •

ولم يؤثر فينا هذا التنبؤ •• فقد كانت هذه المهن مألوفة لدينا ، وليس فينا واحد الا وفى عائلته بائع متجول أو كناس •• وخطر لمصطفى افندى

أن يحدد لكل منا مهنته فى المستقبل ، فتناول أوراق الامتحان بين يديه وأخذ يقرأ الأسماء اسما اسما ويقول :

ـ مجدى محمد عباس •• انت ماتنفعش الا بوهيجى ••

على عبد الحفيظ •• انت أحسن لك تشتغل سفرجى ••

هلال على ريحان •• حقك تروح تشتغل زى أبوك •• قهوجى •

ومضى يستعرض تلاميذ الفصل ويوزعهم على مهن مختلفة وكان هذا الموقف الطريف والتوزيع الفكه قد ذهبا برهبة الموقف •• وبدأت ضحكات خافتة تنبعث من صفوفنا على أثر تعليقاته وتنبؤاته •• كل هذا ونحن واقفون •• ثم أمسك بورقة عبد العزيز وقال :

ـ عبـــد العزيز عبـــد الخالق •• انت ماتنفعش الا حلاق •• زى أبوك ••

وكانت أول مرة نعرف فيها مهنة أبى عبد العزيز ••

ولم يلفت ذلك انتباهنا •• وكلنا كنا من نفس الطبقة ، فلم تثر دهشتنا الا بالقدر الضئيل الذى تثيره (جاكتة) عبد العزيز وجوربه •• وكادت المسألة تنتهى عند هذا الحد •• خصوصا ان مصطفى أفندى تنـــاول ورقة تلميذ آخر وهم أن ينطق اسمه • •لولا ان عبـــد العزيز اندفع من مكانه فجأة الى مصطفى أفندى وهو يصيح به :

ـ أنا قلت لك ميت مرة مالكش دعوة بأبويا •• انت مالك انت اذا كان حلاق والا مش حلاق •• ! •• انت تعرف أبويا بيـحلق لمين •• ؟ •• بيحلق للبهوات والباشوات ••!

وخيم على الفصل صمت مفاجىء •• وذعر مصطفى افندى عندما رأى عبد العزيز يندفع نحوه •• فألقى بالاوراق فى وجهه وانطلق الى باب الفصل وهو يصيح :

ـ ياحضرة الناظر •• ياحضرة الناظر !••

وأسرع بعض الخدم فحالوا بين عبدالعزيز وبينه •• وذهب آخرون لاستدعاء حضرة الناظر الذى بلغت مسامعه الضجة وهو فى حجرته •• فجاء ثائرا غاضبا •• وفى يده عصاه الطويلة يتبعه رتل من خدم المدرسة•

حدث كل هذا فى لحظات قلائل •• وأفقنا من دهشتنا فاذا بالفصل يعج بالناظر وعدد من الخدم يحيطون به •• وعبد العزيز يقف أمام مصطفى افندى ، الذى أخذ يقص القصة على حضرة الناظر فى عصبية ، ويلوح بيديه مستصرخا شهامته وحزمه لحفظ كرامة المدرسين المهدرة ••

وخلع حضرة الناظر منظاره •• وحدق فى عبد العزيز طويلا واستقبل هذا نظراته فى هدوء وثبات •• وأخيرا قال حضرة الناظر :

ـ انت ماحدش مالى عينك ياولد ؟ ••

فقال عبد العزيز هادئا :

ـ ليه يابيه ؟ •• أنا قلت له ستين مرة ملوش دعوة ••

فصرخ الناظر فيه مقاطعا :

ـ اقلع الجزمة !••

وارتجت جدران المدرسة كلها لصراخ حضرة النـــاظر •• وبهت عبد العزيز •• واحمر وجهه •• وعاد حضرة الناظر يصرخ :

ـ اقلع الجزمة باقول لك ! • •

وتصبب العرق على جبين عبد العزيز •• ونظر الى حذائه فى تردد •• ثم نظر الى حضرة الناظر وقال :

ـ بس يابيه ! ..

ولكن حضرة الناظر لم يمهله ليتم عبارته .. وانما أهوى بالعصـــا الطويلة على رأسه ووجهه وهو يصرخ فيه :

ـ اقلع الجزمة .. اقلع الجزمة ..

وتحمل عبد العزيز الضرب فى ثبات .. فلم يتراجع للخلف .. ولم يصرخ .. وانما قال :

ـ حضرتك اضربنى زى ماانت عاوز .. على ايديه .. على وشى.. على ضهرى .. انما مش حااقلع الجزمة ..!

واستشاط حضرة الناظر غضبا .. وانهال عليه ضربا بالعصا ..كان يضربه بوحشية .. ومع ذلك لم يتزلزل عبد العزيز .. ظل واقفـــا فى ثبات .. رافعا رأسه فى اصرار وهو يقول :

ـ أصل ماتتعبش نفسك .. مش حااقلع الجزمة حتى لو شرحتنى .

وقطعت عليه عبارته عصا نزلت على وجهه .. ولسعت أنفه وشفتيه .. وارتفعت لتهوى مرة أخرى بعد أن تركت خطا أزرق داميا على وجهه .. ومع ذلك لم يصرخ عبد العزيز .. ولم يتراجع .. وانما تقلص وجهه من الألم .. ورفع يديه ليتقى بهمـــا وقع العصا .. فصـــاح به حضرة الناظر :

ـ وكمان بترفع ايديك عليه ؟ .. لازم تقلع الجزمة ..

وصاح عبد العزيز بانفعال :

ـ والله ماانا قالعها .. شوف حتعمل ايه بقى ؟.. عاوز ترفدنى ارفدنى ..!

وهدر الناظر بصراخ لم نتبين منه حرفا •• ولكنه كان كافيا ليعطل الدراسة فى المدرسة كلها •• فخرج المدرسون والتلاميذ من الفصـــول •• وتجمعوا حول باب فصلنا يتفرجون على هذه المعركة ••

ورأى عبد العزيز ان المدرسة كلها تتفرج عليه •• ففقد صوابه •• واندفع الى حضرة الناظر وأنشب أصابعه فى رقبته ••

واندفع الجميع لانقاذ حضرة النـاظر •• فخلصـــوه من بين يدى عبد العزيز •• ثم تكاثروا حوله وانهالوا عليه ضربا •• وعبد العزيز يرد اللطمة لطمتين والركلة ركلتين وهو هائج وسطهم كالأسد الجريح •• وحضرة الناظر يقف بعيدا عن المعركة وهو يصرخ :

ـ قلعوه الجزمة •• لازم يقلع الجزمة •• قلعوه الجزمة ! ••

وأحس عبد العزيز بأنه يوشك أن يغلب على أمره فتراجع الى الوراء •• ووقف فى الممر الضيق بين مقاعدنا ، وتقدم اليه أحد المدرسين وقال له :

ـ اسمع ياابنى •• اقلع الجزمة واقصر الشر ••

فقال عبد العزيز وهو يتراجع الى الخلف :

ـ مش ممكن •• ارفدونى •• انما مش حااقلع الجزمة ••!

وقال بعضنا له :

ـ ياعبد العزيز علقة تفوت ولا حد يموت •• اقلع الجزمة واخلص!

فهز عبد العزيز رأسه فى اصرار ••

وصرخ حضرة الناظر فى الخدم :

ـ امسكوه .. لازم تقلعوه الجزمة ..

وانطلق ثلاثة من الخدم لتنفيذ هذا الامر .. وبدأت مطاردة عنيفة بينهم وبين عبد العزيز .. وهو يراوغهم ويفلت من أيديهم كلما أطبقوا عليه .. وتعثر واحد منهم فسقط على تلميذ منا .. فارتفع صراخه .. وهاج الفصل وخرجنامن مقاعدنا فزعين .. وقفز عبد العزيز فوق أحد الادراج ثم أخذ يقفز من درج الى درج ليفلت من مطارديه . كان من الواضح أنه يحاول الاقتراب من الباب ليهرب منه .. وأدرك حضرةالناظر ذلك .. فأسرع الى الباب فوقف عنده وخلفه أفواج التلاميذالذين تجمعوا ليشاهدوا المعركة ..

ورأى عبد العزيز أن طريق الباب مسدود .. فانطلق الىالنافذة.. كان يريد أن يقفز منها الى الطريق غير مبالٍ بأنها فى الطابق الثانى .. ولكن أحد الخدم أسرع الى النافذة فوقف عندها .. وهكذا وقععبدالعزيز فى فخ محكم لامفر منه ولكنه لم يستسلم .. كان عناده غريبا .. فأخذ يقفز فوق الأدراج وهو يراوغ الخدم الثلاثة .. حتى لهثت أنفاسه .. وضعفت قواه ..

وكان يقفز من درج الى درج عندما انزلقت قدمه .. واختلتوازنه .. فهوى بين المقعدين .. وتلقفته الأيدى .. فحملوه الى حضرةالناظر .. وألقوه على الأرض أمامه .. وجلس واحد على صدره .. وأمسك واحد يديه .. وبدأ الثالث يجذب حذاءه ليخلعه ..

ولاول مرة منذ بدأت المعركة .. صاح عبد العزيز متألما .. وأخذ يستعطف حضرة الناظر :

ـ والنبى ياحضرة الناظر •• أبوس ايديك •• بلاش تقلعنى الجزمة •• ادبحنى ياحضرة الناظر •• اشنقنى ياحضرة النـــاظر •• بس بلاش تقلعنى الجزمة ! ••

وكان فى صوته ألم غريب ••

ولكن أحدا لم يعبأ باستعطافه ، ومضى الخادم يجذب الحذاء حتى تمكن من خلعه ••

وفجأة صرخ الخادم الذى يجلس على صدره •• وقفز واقفا ، فقد عضه عبد العزيز •• ثم جذب ساقيه وذراعيه فى قوة، فأفلت من الخدم وقفز واقفا •• ونظر الى قدميه •• قدميه بلا حذاء •• وأطرق الى الارض فى خجل •• وسالت من عينه دمعة •

وران على الجميع صمت مفاجىء • وتطلعت عيونهم الى قدمى عبد العزيز •• قدميه بلا حذاء •• لم يكن فيهما جورب •• كانتا عاريتين مثل أقدامنا تماما •• وكان الجورب الذى نراه كل يوم فوق الحذاء رقبة جورب فقط • لم يكن هناك (كعب) للجورب !••

وقال عبد العزيز فى صوت منخفض :

ـ يعنى ياحضرة الناظر كان لازم تقلعنى الجزمة ؟•• مبسوط دلوقتى شفت الشراب اللى أنا لابسه ••؟•• طيب •• شوف بالمرة •• آدى الجاكتة رخره ••

ثم خلع (الجاكتة) التى يرتديها •• كان القميص الذى تحتها ممزقا، وكانت به رقع ولكنها تمزقت أيضا •• وقال عبد العزيز :

ـ خلاص استريحت ياحضرة الناظر .. ؟ .. استريحتم كلكم ..

وحمل الجاكتة على ذراعه .. والحذاء فى يديه .. وسار نحوالباب .. فلم يعترض طريقه أحد .. بل انفرجت جموع التلاميذ عن صفين طويلين بينهما طريق ضيق ..

وخرج عبد العزيز .. ولم نره بعد ذلك فى المدرسة .

اللعبة الكبيرة

« احداث القصة الاساسية من الجبرتي »

ـ طاخ •• طاخ •• أنا الأغا مستحفظان ديبوه !••

قالها صبى صغير فى ثياب زرقاء افترض فيه الصبيان انه الجنرال ديبوه محافظ القاهرة ••

ـ طاخ •• طاخ•• وانا الشيخ عبد الوهاب ••!

قالها سلامة وهو يقفز نحو الجنرال ديبو ورفاقه ، ودفعه فى صدره فسقط على الأرض صائحا :

ـ آه •• قتلنى يابونابرته ! ••

وضج الصبيان ضاحكين وصاحبهم يستغيث بنابليون بونابرت ••

***

بدأت هذه اللعبة منذ قرن ونصف بين سلامة وبقية صبيان حارة المقدم فى الغورية ، كان الوقت ضحى ، والجو رائقا جميلا ، والبيوت قد خلت الا من النساء أمام مواقدهن ينضجن طعام اليوم ، أمام الرجال فكانوا قد خرجوا الى دكاكينهم مبكرين لعلهم يعوضون خسارتهم فى تلك الأيام التى أغلقوها فيها أثناء ثورة القاهرة ضد الفرنسيين منذ أسابيع ••

ولم يكن لأهل القاهرة من حديث الا عن هذه الثورة ، فالرجال فى دكاكينهم يتحدثون فى وجوم وحقد ، والنساء أمام مواقدهن يندبن الشهداء ، والصبيان فى الحوارى يلعبون فيستعيدون أحداث الثورة التى شهدوها أو

سمعوا بها ثم يحولونها الى ألعاب قد تعنف أحيانا لتكون مشابهة لما حدث فعلا خلال الثورة ..

وفى حارة المقدم انقسم الصبيان الى فريقين ، فريق يمثل المصريين وفريق يمثل الفرنسيين ، وتسمى افراد كل فريق باسماء المشهورين من رجاله ، فأصبح بعض الصبيان يسمون أنفسهم الشيخ السادات والشيخ الفيومى ، وبعضهم يسمى نفسه بونابرته الكبير والاغا مستحفظان ديبوه والاغا فرط الرمان ، واختار سلامة اسم الشيخ عبد الوهاب بطل حارتهم.

وكانت هناك صلات تربط الغلام بهذا الشيخ فقد كان صديق والده وجارهم فى الحارة ، وكثيرا مارآه الغلام يجلس مع والده والصحاب من أهل الحارة في السهرة يتحدثون ، وكان الشيخ عبد الوهاب أجهرهم صوتا وأشدهم بذاءة اذا تحدث عن الفرنسيين.. ورأى الغلام رجال الحارة ذات صباح يخرجون حاملين عصيهم يتقدمهم الشيخ عبد الوهاب وفى يده سيف طويل يبرق فى ضوء الشمس ، فجرى خلفهم متشبثا بثوب أبيه ، ولكن أمه أمسكت به لتعيده الى البيت ، فصرخ وصخب ، ولم يهدأ الا عندما ربت الشيخ عبد الوهاب على ظهره قائلا :

ـ ارجع مع أمك .. وسأعود لآخذك فتقتل الفرنسيين معنا ..؟

ثم انطلق الجمع الى شارع الغورية ليختفى بين الجماهير التى يموج بها حى الازهر ، وسمع الغلام طلقات رصاص وصرخات ألم، فحاول أن يخرج الى الطريق ليستطلع الامر ، ولكن أمه أغلقت دونه الباب فاضطر أن يكتفى بالتطلع من النافذة ومن هناك رأى بعض أهل الحارة يعودون وقد حملوا بين أيديهم أجساما ملفوفة فى ملاءات بيضاء بها بقع حمراء كبيرة يدخلون بها الى بعض البيوت ثم يخرجون مسرعين ليعودوا الى الازهر من جديد.

وفى المساء لم يعد أبوه ، ولم يعد واحد من أهل الحارة ، وسمع الغلام

أن الرجال سيبيتون فى الازهـر ، وأن الاغا مستحفظان ديبوه قد قتل مـع كثير من عساكر الفرنساوية ..

وفى الصباح عادت طلقات الرصاص وصرخات الالم ، ثم سمع الغـلام انفجارات مدوية ، كانت أصوات مدافـع ، ورأى بيوتا تحترق وجـــدرانا تتهاوى فوق رءوس من فيها من النساء والاطفال .

وفى المساء عاد أبوه وبعض الرجال ، عـادوا منكسى الرءوس مهدلى الاكتاف ، ودخلوا الى بيوتهم فى خطو كئيب متخاذل ، وجرى الغلام نحو أبيه صائحا :

ـ قتلتم الفرنساوية ؟

ولكن أباه استلقى على حصيره دون أن يجيب ، وتقدمت أمه تأخذه من يده لترقده بجانبها على الحصير . وفى منتصف الليل صحا الغلام عـــلى صوت يقول لأبيه :

ـ سنعود .. ثق من ذلك .. سنعود من جديد ..! وسننجح فى المرة القادمة ..!

كان صوتا يعرفه الغـلام جيدا .. هـو صوت الشيخ عبـد الوهاب ، ولكن كانت فيه نبرة غريبة لم يفهم الغلام سببها وان جعلت قلبه ينقبض فى صدره ، فقام من حضن أمه وتسلل الى الباب فرأى الشيخ عبدالوهاب يعطى أباه السيف البراق الذى خـــرج به فى الثورة ، فيخفيه أبوه بين كومة من الثياب القديمة وخرج الشيخ عبد الوهاب ولم يره الغـــلام بعد ذلك وانما رأى فى الصباح عساكر الفرنساوية يقتحمون الحارة وهم يطلقون الرصاص ثم رآهم يفتشون البيوت ومنها بيت أبيه ، ولكنهم لم يلتفتوا لكومة الثيـــاب القديمة بقدر اهتمامهم بحلى ذهبية كانت أمه تخفيها فى الدولاب ، فأخذوها وخرجوا وتركوا سيف الشيخ عبد الوهاب فى مكانه بين الثياب القديمة ..

وبعد أيام سأل سلامة أباه :

ـ لماذا لم يرجع الشيخ عبد الوهاب ليأخذنى كما قال ؟ ..

وصمت أبوه قليلا ثم قال :

ـ الشيخ عبد الوهاب سافر

ـ ومتى يرجع .. ؟

ـ لا أدرى .. !

ـ ولكنه وعدنى .. !

فلم يجب الاب ، وما كان فى استطاعته أن ينبىء ابنه أن الفرنسيين قد قبضوا على الشيخ عبد الوهاب وهو يحاول الهرب ليلا من القاهرة ، وأنهم أعدموه شنقا ثم ألقوا جثته خلف القلعة ، لم يكن فى استطاعته أن يخبر ابنه بكل هذا ، فقام وغادر الدار فى صمت ، ولكن سلامة أخذ منذ ذلك اليوم يتطلع كل صباح الى مدخل الحارة متوقعا أن يرى الشيخ عبد الوهاب عائدا ليسترد سيفه ، ويقود الرجال ، ويأخذه معه لقتل عساكر الفرنساوية .. !

***

ـوسع انت وهو .. أنا فرط الرمان .. ! طاخ .. طاخ .. !

وكان الصبيان ـ مثل كل الشعب ـ يسمون برثلميو الرومى بفرط الرمان ، وكان برثلميو روميا يعيش فى مصر ، فلما جاء الفرنسيون تعاون معهم ، فعينه نابليون رئيسا للشرطة (أغا) ، فكرهه المصريون لأنه أسرف فى اخلاصه للفرنسيين ، كان يعذب المصريين ويقتلهم بالشبهة . فلما صاح أحد الغلمان معلنا أنه فرط الرمان ، ارتفعت أصوات الباقين مصوتين فى استهجان ، وهجم عليه سلامة صائحا :

ـ طاخ .. طاخ .. أنا الشيخ عبد الوهاب ... !

ثم تشابك الغلامان بالأيدى، فسقط فرط الرمان على الارض ،وجثم سلامة على صدره، وتحمس فريق المصريين فهجم على الفريق الذى يمثل الفرنسيين صائحين مهللين ، وأوشكوا ان ينتصروا عليهم لولا أن واحـدا منهم صاح وهو يطوح بعصاه فى الهواء :

ـ ابعد من قدامى انت وهو .. أنا بونابرته الكبير .. !

ولما كان الصبيان يعرفون أن نابليون هو الذى أخمد الثورة ، كان من المفروض أن ينهزم فريق المصريين أمام من يمثل دوره ، ففروا جميعا من أمامه وضحكات بعضهم تختلط بصراخ الآخرين ممن اندمجوا فى دورهم تماما ، وتفرقوا من حول سلامة الذى كان يربض على صدر فرط الرمان ممسكا بخناقه وهو يصيح :

ـ أنا الشيخ عبد الوهاب .. !

فصاح به من يمثل دور نابليون :

ـ وانا بونابرته الكبير .. أنا سارى عسكر .. اهرب من قدامى..

ولكن سلامة لم يتزحزح ، وقد ملكته حماسـة النصر على فرط الرمان ، وقال :

ـ الشيخ عبد الوهاب لايهرب .. !

وحينئذ لم يجد نابليون مفرا من أن يهجم على الشيخ عبد الوهاب ، وتعاون هو وفرط الرمان الذى تمكن من التخلص ، فأمسكا بسلامه وطرحاه أرضا ، ثم أمسك كل منهما باحدى قدميه وأخذا يجرانه على أرض الحارة بين ضحك الرفاق وضجتهم، وحاول سلامة عبثا أن يتخلص منهما، ولكنهما

مضيا يسحبانه على الارض الصلبة الجافة ، وأحس بشيء يشتبك بجلبابه فيمزقه ، فصرخ بصاحبيه أن يتركاه ولكن فرط الرمان قال له متحديا :

ـ اعترف بأنك مقتول .. !

ـ الشيخ عبد الوهاب يقتل ..؟ لايمكن ..!

وارتطمت رأسه بالأرض .. فعاد يصرخ بهما أن يتركاه ، ولكن فرط الرمان صاح به :

ـ أنت مقتول .. قل انك مقتول .. !

مستحيل أن يعترف بأنه قتل ، والا الحق العار بالشيخ عبد الوهاب .. ! .. أو لم يسمعه بأذنيه يقول لابيه انه سيعود ليقتل الفرنسيين .. وانه سينجح ؟

واصطدم رأسه بحجر .. فصرخ متألما ، وأحس اصحابه انه صادق فى ألمه ، فترك نابليون القدم التى يمسك بها ، ولكن فرط الرمان لم يتخل عن القدم الأخرى، فجذبها سلامة فى عنف ووثب واقفا وتحسس موضع الالم من رأسه ، فارتدت اليه يده ملوثة بسائل أحمر ، فحدق فيه ذاهلا ،ثم صرخ بمن يمثل فرط الرمان :

ـ قتلتنى .. ؟! .. والله لاقتلك فى الحال .. !

ثم انطلق يجرى الى بيته تشيعه ضحكات رفاقه وسخرية فرط الرمان، ولكنه كان يرتجف غضبا . أيقتل الشيخ عبد الوهاب بيد فرط الرمان الخائن البصاص .. وسيفه لايزال في مخبئه بين الثياب القديمة ..؟! .

ولم يكن واحد من رفاقه يعلم ما يدور فى رأسه .. ففوجئوا به يخرج من باب البيت وهو يشهر فى يده سيفا لامعا .. ثم اندفع صوبهم جامد النظرات عابس الوجه ، فصرخ الغلمان فى فزع وأطلقوا سيقانهم

للريح ، وسرعان ماأصبحت الحارة خالية تماما الا من سلامة وفي يده السيف اللامع ..

وفي تلك اللحظة .. ظهر على رأس الحارة ثـــلاثة من آلجنـــود الفرنسيين ..

***

كان نابليون قد أصدر أمره بعد اخماد ثورة القاهرة بجمع السلاح من الاهالى ، وفرض القتل على كل من يخفى سلاحا ، واقتحـــم أعوان برثلميو كل بيت يفتشونه حتى اعتقدوا أن القاهرة قد خلت من السلاح ، فلما رأى الجنود الثلاثة غلاما يلعب في الحارة مشهرا سيفا طويلا لامعا ، وقفوا يحدقون اليه في دهشة ، ثم اندفعوا نحوه للامساك به .

وكان سلامة لايزالَ يرتجف انفعالا ، فقد أسكَره آنتصـاره عـلى اصحابه الذين انتحلوا شخصية الفرنسيين ، ثم فوجىء بفرنسيين حقيقيين يندفعون نحوه.. فاللعبة اذن لم تنته بعد..! وينبغى أنَ ينتصر على هؤلاء الثلاثة كما انتصر على الباقين .. فصرخ فيهم وهو يجرى نحوهم :

ـ وسع انت وهو .. أنا الشيخ عبد الوهاب . !!

وضحك الجنود الثلاثة من تلك الأربعة عشر ربيعا التى تجرى آليهم وفي يدها سيف . ! .. ومد أولهم يده ليمسك بالغلام ، ولكن السـيف مضى قاطعا يشق طريقه في صدره .. ثم تستقر ذبابته في القلب !! ..

وكف الجنديان الآخران عن الضحك .. وأدركا أن هذا الغلام غير عابث .. فمدا أيديهما الى مقبضى سيفيهما، ولكن سلامة كان قدانتزع سيفه من صدر الأول ليغمده في بطن الثانى .. ورأى الثالث ماحدث فلم ير مايدعوه لاجتياز هذه التجربة ... وانطلق يجرى صارخا في فزع كأنما الشياطين في أعقابه ..

واجتذبت الصرخات أسماع الامهات •• فتركن مواقد الطعام وأطللن من النوافذ ليرين سلامة الصغير ينـــدفع خلف الهـــارب •• فانطلقت الصرخات ••• واندفعن خلفه ، تتقدمهن أمه وحبيباتها •• ورأى الرجال في دكاكينهم جنديا فرنسيا يجرى ، وفى أعقابه غلام صغير فى يدهسيف، ثم جماعة من النسوة يجرين خلفهما صائحات مولولات ، فأغلقوا الدكاكين، ثم انطلقوا خلف الجميع ، وسرعان ما أصبح شارع الغورية بحرا يموج بالخلق ويضج بالصراخ ••

وكان هناك كثيرون من جنود نابليون ، فلما رأوا تلك الجمـــاهير الصاخبة تجرى نحوهم صاح أحدهم :

ـ لقد ثارت القاهرة مرة أخرى •• !!

ولما كان الفرنسيون لم ينسوا بعد ما أصابهم من الثورة الاولى ،فقد انطلقت جموعهم هاربة ، وكلما مروا بجماعة منهم صاحوا بهم أن الثورة شبت من جديد •• فينضمون اليهم فى الفرار •• !

وهكذا كبرت اللعبة ، وخرجت من حارة المقدم بالغورية الى حى الازهر كله •• وانتقلت من الصبيان الصغار الى الابطـــال الحقيقيين من مصريين وفرنسيين

ووصل الخبر الى نابليون •• قيل له ان فارسا ملثما ضخما قتل اثنين من جنوده وارغم الثالث على الفرار •• ثم قاد الجماهير الى ثورة جديدة، فأمر باخماد الثورة فى الحال والقبض على الفارس الضخم الملثـــم •• وانتقلت المدافع الى مواقع الضرب •• وبدأت فرق الفرســان تخرج من ثكناتها •

وأفاقت الجماهير التى تتبع سلامة على صوت مدفع يجلجـــل فوق رءوسهم •• وسقطت القذيفة على منزل أمامهم فهدمت جداره ، وعـــلا الصراخ والصخب •• وتدافعت الجماهير بالمناكب وماجت جموعهم ••

وسرى الاضطراب اليهم •• واختلط سلامة بالجموع •• وضاع بينهم•• لم يلتفت أحدهم اليه •• ونسى هو كل شيء الا الرغبـــة فى الفرار •• وتتابعت القذائف •• وسقط بعضها بينهم ففتكت بعشرات منهم •• وزاد الاضطراب والصراخ •• وضاع صوت أم سلامة وهى تنادى عليه وسط دوى المدافع وصراخ الناس •• لم يكن فى حسبانهم عندما خرجوا خلف سلامة أنهم سيقاتلون الفرنسيين أو انهم فى ثورة ، فلما فاجأتهم القذائف أدركوا أنهم معرضون لمذبحة كتلك التى خاضوها منذ اسابيع ، ولكنهم فى هذه المرة مجردون من السلاح ومن القيادة •• فلم يكن أمامهم الا الفرار •• فأخذ كل منهم يشق طريقه بكتفيه الى أقرب مكان يحميه ، ووجـد سلامة أمواج الجماهير تلقى به الى مدخل حارة ضيقة ، فدخل اليهـا ثم انطلق يجرى •• ويجرى •• ويجرى •• ويدخل الى حارة ليخرج من حارة •• وينحرف فى زقاق ليدفعه الى زقاق •• وبدأ يحس بأن الجماهير تختفى بسرعة من حوله •• ولكنه استمر فى انطـــلاقه •• حتى لهثت أنفاسه •• وتصبب جسمه بالعرق •• وضاق صدره عن آحتمال هـــذا الجهد •• فكبا على الارض •• وانبثق دم من أنفه •• ثم لم يعد يحس بما حوله ••

★

وعندما أفاق وجد نفسه فى قاعة مظلمة رطبة ، نافذتها كوة ضيقة ، وأرضها حجر صلد ، وبابها مغلق دونه ، وسمع فى الخارج أصواتاتتحدث بلغة غريبة لم يسمعها من قبل ، وصليل سيوف تحتك بالارض ، ووقـع أقدام ثقيلة تروح وتجيء أمام الباب وحاول أن يتحـــرك فعجزت يداه وقدماهعنالحركة•• كان مشدود الوثاق، فأدرك أنه وقعفىأيدىالفرنسيين وأنهم سيثأرون للجنديين اللذين قتلهما •• وسيقتلونه ، فهم يقتلون الناس دون سبب• وفزع من الموت ، هذا الموت الرهيب الذى يجعل الانسان لايرى ولا يسمع ولا يتكلم ، والذى يجعله يعيش بعيدا عن النـاس ••

هناك فى حجرة مظلمة فى الجبانة ينزل اليها بسلم تحت الارض ، ثم لايخرج منها ولا يقابل أحدا ولا يتحدث الى أحد الا يوم القيامة الذى سمع عنه من الشيخ عبد الوهاب في سهراته مع والده والصحب .. !

وانطلق يبكى .. كان خائفا .. مفزعا .. فى تلك الحجرة الرطبة المظلمة.. موثق اليدين والقدمين بعيدا عنأبيه وأمه.. جائعا لايستطيعأن يأكل .. ظمآن لايستطيع أن يشرب .. متعبا لايستطيع أن ينام .. انه لايستطيع شيئا على الاطلاق .. وسيموت كما مات هؤلاء الناس الذين رأى أهل حارته يحملونهم في ملاءات بيضاء بها بقع حمراء.. لقد سمع أباه يقول انهم أبطال .. وانهم لم يموتوا عبثا .. وانما ماتوا بعد أن قتلوا عساكر الفرنساوية .. وأراحوا العالم من جزء منهم .. ولذلك سيدخلون الجنة .. لان الله يحب كل من يريح العالم من عساكر الفرنساوية ..!!.. وهو .. ألم يرح العالم من اثنين منهم .. ؟! .. انه بطل اذن .. والله يحبه أيضا .. وأبوه يحبه .. وكل أهل الحارة .. بل كل أهل مصر يحبونه .. حتى أصحابه الصبيان فى الحارة يحبونه .. وفرط الرمان الذى كان يتشاجر معه .. انه يحبه أيضا .. فهو يعرف أنهم كانوا يلعبون .. وفرط الرمان هذا .. وبونابرته الكبير .. وكل من كانوا فرنسيين .. ليسوا أعداء له فى الحقيقة .. بل هم مثله يكرهون عساكر الفرنسيين .. وانما هو لعب فقط .. كانوا صغار يلعبون .. وهو الآن يلعب وحده مع الكبار .. مع عساكر الفرنسيين الحقيقيين .. أليس بطلا .. ؟ .. ألا يستحق أن يحبه الناس من أجل ذلك .. ؟ وما قيمة الموت بجانب هذا الحب الكبير .. حب الله .. وحب الناس جميعا .. كل الناس ..؟! .. وما هو الموت .. ؟ .. انه لايعذب .. طاخ .. ثم يقع على الارض بغير روح ... أو ربما علقوه فى حبل مثل حبل (المرجيحة) .. فيظل يتأرجح .. ثم ينزلونه بغير روح أيضا ..

وكف عن البكاء .. !

* * *

سيق سلامة الى قاعة واسعة حيث واجـــه فرط الرمان الحقيقى ، فتطلع اليه فى فضول ، والتقت نظراتهمـا ، فلمعت فى عين فرط الرمان كراهية شديدة .. وكانت فى عين سلامة نظرة ساذجة هادئة مطمئنـــة .. أهذا هو فرط الرمان .. « البعبع » الذى يخيف الناس ؟ .. لقد كان يظنه عملاقا أسود الوجه بارز الانياب .. ولكنه يراه الآن لأول مرة .. انه لايختلف كثيرا عن فرط الرمان الذى غلبه فى الحارة وأرغمه عـلى الفرار .. فهو مثله قصير نحيل هضيم الوجه .. وان كان هناك فرق فهو فى هذه التجاعيد التى تنعقد فوق جبهته وهذه الصلعة التى تلمـــع فوق كتفيه .. ! .. لن يغلبه هذا القزم البصاص .. لن ينهزم فى هذه اللعبة الكبيرة ، سيحافظ على انتصاره مهما فعل به .

وما كاد الباب يغلق عليهما حتى تقدم فرط الرمان من سلامه .. وحاولَ أن يكسو وجهه ببسمة مصنوعة ثم قالَ :

ـ والآن يابنى الصغير .. من أنت ؟

كان فرط الرمان قد علم من الجندى الهارب أن الاغتيالَ حدث فى حارة المقدم بالغورية ، فقبض على كل اهلها .. وفتش بيوتهم .. وحاول عبثا أن يعلم اسم الفارس الملثم.. ولكنهم جميعا كانوا لايعرفون..! انهملم يروا شيئا.. كأنهم كانوا فىبلد أخرى ولم ينطلقوا فى مظاهرة صاخبة..! فلما قبض على الغلام مغمى عليه .. ووجدَ بجانبه السيفَ وعلى ملابسه بقع من الدماء .. علم أنه هو القاتلَ .. وأنَ ليس هناك فارس ملثم .. وانما هو جبن الجندى الهارب الذى اخترع هذه الاسطورة .. ولكن بقى اللغز الذى عجز عن معرفته من أهلَ الحارة .. ما اسم هذا الغلام .. ؟

وأعاد السؤال مرة ثانية :

ـ من أنت يابنى ؟

ولكنه لم يتلق اجابة من سلامة ، الذى كان يفكر فى شىء آخر .. لماذا يسأله فرط الرمان عن اسمه ..؟

أيريدأن يعرفأباه وأهل حارته كى يقبض عليهموبقتلهم..؟ وماذا يقول الشيخ عبد الوهاب عندما يعود ليقودهم لقتل عساكر الفرنساوية .. فيجدهم قد قتلوا .. ويعرف أنه هو الذى دل عليهم ؟ لا .. لن يقـــول اسمه الصحيح .. !! وبدأ صوت فرط الرمان يقسو وهو يســـأل للمرة الثالثة :

ـ من انت ؟.. ألا تريد الكلام..؟ قل .. ماآسمك..؟

وانطلق صوت سلامة كقذيفة المدفع .. لم يقل غير كلمتين اثنتين:

ـ الشيخ عبد الوهاب .. !

وابتسم فرط الرمان فى خبث وقال :

ـ شيخ عبد الوهاب ؟ .. أنت شيخ اذن .. ؟!! .. ولكنك صغير جدا على هذه المشيخة .. ! .. طيب يامولانا .. ومن أبوك .. ؟

كلا .. لن يقول له اسم أبيه .. لاشىء الا :

ـ الشيخ عبد الوهاب .. !!

فهز فرط الرمان رأسه فى ضيق وقال :

ـ عرفنا انك شيخ عبد الوهاب .. ولكن ... شيخ عبد الوهاب ابن من ؟

ـ الشيخ عبد الوهاب .. !!

فصمت فرط الرمان فى غيظ ثم قال بعد لحظة وهو يشير الى سيف الشيخ عبد الوهاب الملقى فى ركن الحجرة :

ـ طيب .. دعنا من اسم أبيك .. سيف من هذا .. ؟

ـ الشيخ عبد الوهاب .. !!

ونفد صبر فرط الرمان ، فأهوى بكفه على وجه الغــلام وصرخ ثائرا :

ـ شيخ عبد الوهاب .. شيخ عبد الوهاب .. لاشىء الا شيخ عبـد الوهاب .. ؟! .. سأرغمك على الكلام .

وأمسك بسوط رفعه فوق رأس الغلام وصرخ فيه :

ـ سيف من هذا ؟

ـ الشيخ عبد الوهاب .. !!

فأهوى بالسوط فوق جسد الغلام وهو يردد :

ـ قلت لك سيف من هذا ؟

ـ الشيخ عبد الوهاب .. !!

وارتفع السوط مرة ومرة . حتى مزق ظهر الغلام .. واختلط صياح فرط الرمان بصراخ سلامه ، وكلما تعب أعاد سؤاله عن صاحب السيف فلا يسمع الا « الشيخ عبد الوهاب » .. ويعود السوط من جديد .. وكان من المحال أن يتلقى اجابة أخرى .. فالسيف هو سيف الشيخ عبد الوهاب فعلا .. ولكن فرط الرمان لم يستطع أن يفهم أن ســـلامه

صادق فى هذه المرة بالذات .. فاستمر فى تعـــذيبه .. كواه بحديد محمى.. وانتزع أظافره .. وكسر ذراعه .. ثم فقأ عينيه .. وعنـــدما رقد فوق صدره بالمثقب ليفقأ عينه الثانية رأى شفتى الغلام تتحركان .. فابتسم فى ارتياح وقرب أذنه من فم سلامه فسمعه يقول :

ـ الشـ .. يخ .. عبد .. د .. الو .. هاب ..

فانتفض فى غضب .. وأغمد المثقب فى العين التى تحدق اليه فى سذاجة .. ثم هب واقفا وأخذ يركل الغلام بقسوة .. فى بطنـــه .. ورأسه .. وهو يصرخ فى جنون .. ولكن سلامه لم يحس بشىء من ذلك .. فقد رأى أمامه الشيخ عبد الوهاب يتقدم فى الحجرة الى سيفه الملقى على الارض .. فيحمله .. ويبتسم فى وجه سلامة .. ثم يختفى .. ويختفى معه كل شىء .. منظر الحجرة وشبح فرط الرمان .. وصوت صراخه .. حتى الالم القاسى الذى كان يدمى عينيه وكل جزء فى جسمه .. قد اختفى أيضا .. وحلت محله راحة وخدر لذيذ .. ثم انطبق جفناه الى الابد .

١٨-٦-١٩٥٦

خفّةُ يَدُ

كان الغروب رائقا جميلا ، فى السماء تتف من السحاب الأبيض ، تتلألأ خلاله نجوم قليلة، وفى الارض أضواء الدكاكين ترتمى على أرض الشارع الضيق، وأصحاب الدكاكين أنفسهم يجلسون أمامها فى وداعة بعد أن شربوا الشاى ، وبعد أن صلى المغرب من يصلى منهم ، وكان الشارع هادئا خاليا من المارة ، الا من رمضان الذى مضى يقطع الطريق فى خطو بطىء واثق الى دكان عم متولى البقال .

وكان رمضان جديدا فى هذا الحى ، سكنه منذ ثلاثة أيام ، ولم يكن يعرف أحدا فيه ، الا أنه عندما لمح جماعة من الرجال يجلسون أمام صالون الاسطى مرسى الحلاق أخذ يعد نفسه لالقاء السلام ، فنقل الحقيبة الجلدية الصغيرة الى يده اليسرى حتى يخلى اليمنى لترتفع الى جبهته عند التحية ، وكان فى هذه الحقيبة أدوات غريبة لاتمت بأوهى صلة الى عمله الرسمى كمجلد كتب، فلقد كان فيها (سبرتو) صغير، وعلبة من الصاج لغلى الماء، وزجاجة من الكحول النقى .. وورقة قطن طبى ، وعلبة من المعدن ترقد فيها ثلاث حقن زجاجية مختلفة الاحجام ... وعدد من الابر ... أغلبها صدىء وغير صالح للاستعمال .. ولكنها كانت -من حيث العدد- ذات مظهر مشرف يتفق مع لقب (دكتور) الذى يحرص عليه رمضان بعد الظهر عنـــدما يبدأ فى ممارسة هوايته .. اعطاء الحقن لابناء الحى .

ولم يكن رمضان يتشدد فى الأجر ، فالشـــلن نعمة كبيرة ، والقرشان لابأس بهما ، وليس ثمة مايمنع من ارجـــاء الدفع الى أول الشهر .. أى شهر .. ان مايعنيه ليس المال .. وانما يهمه أن يتيح له أبناء الحى أن يطوح الحقيبة الجلدية فى يده وهو يمشى ، وأن يصيحوا به

فى أعلى صوت ممكن (اتفضل يادكتور) ••• وهو يعلم أن فيهم من يقولها ساخرا •• بل لعل الجميع يســـخرون به ، ولكن لا بأس فى ذلك ، فهى سخرية لذيذة على كل حال ، واللقب يملؤه انتشاء وسرورا •

وكان رمضان قد اقترب من صالون الاسطى مرسى ، فأسرعت يده اليمنى ترتفع الى طربوشه لتميل به الى اليمين قليلا ، وانحدرت الى رقبته تتحسس ياقة القميص الابيض المفتوحة وتطمئن الى أنها تنثنى خارج ياقة الجاكتة فتكسبها أناقة ،وفى نفس الوقت تخفى ما أصـابها من تآكل ، ثم تدلت ذراعه الى جانبه فى استعداد ، وما ان حاذى دكان الاسطى مرسى حتى قال فى صوت أقرب الى الصياح :

ـ السلام عليكم ورحمة الله •• !

وفى نفس الوقت كانت ذراعه اليمنى ترتفع الى جبهتـه لتأكيـد التحية ، ويده اليسرى تطوح بالحقيبة الجلدية فى قوة ، وارتفعت عـدة ، اصوات قائلة :

ـ وعليكم السلام •• اتفضل ••

ـ سلام ورحمة الله •• اتفضل ••

الكل رد السلام فى ترحيب •• والكل دعاه الى التفضل فى حرارة، ورغم هذا أحس رمضان بشىء من الامتعاض ، لانه لم يسمع الكلمة التى كان يود سماعها (اتفضل يادكتور) •• ولكن امتعاضه تبدد سريعا ، فهو يعلم أن أحد لايعرفه•• والأيام كفيلة بأن تجلب له الشهرة التى كان يتمتع بها فى حيه القديم ، وحسبه أن حصل على أول زبون له هنا بعد ثلاثة أيام فقط من سكناه هذا الحى •

كان ذلك مصادفة ، فعند عودته من المطبعة التى يعمل بها ، مر على

دكان متولى البقال ليشترى خمس سجاير ، فرأى بجوار شـوال الارز غلاما أسمر ، يكشف عن ساق مليئة بالقروح يدهنها بمرهم أبيض ، كان المنظر يثير الغثيان ، ولكنه تغاضى عن تلك القشعريرة التى اجتاحتــه ، وحول عينيه عن الساق المتقيحة ، ولم يجد مايثبتهما عليه الا وجه عمىمتولى الأسمر ، والتقت عيناه الواسعتان بنظرات متولى الشرسة التى تنبعث من عينيه السوداوين المستديرتين ، فسأله مجاملا :

ـ ماله •• ؟

وفتح متولى درجا ألقى فيه بالقرشين اللذين ألقاهما رمضان على البنك ثم قال :

ـ حاجة تفلق •• بقى لى جمعتين باقول له روح للحكيم •• روح للحكيم •• مش عايز •• هوليود والا وتكس ••• ؟

ـ وتكس •• وحتسيب رجله بالشكل ده ؟ ••

فقال متولى وهو يفتح درجا آخر ويتناول السجائر :

ـأهو النهاردة راح للحكيم •• كتب له مرهـــم •• وثلاث حقن بنسلين •••

وما كاد رمضان يسمع كلمـــــة (حقن) حتى انفرجت شفتاه عن ابتسامة خففت من شراسة نظرات متولى ، ومهدت للاتفاق بينهما على أن يتولى حقن الغلام ، نظير ثلاثة قروش للحقنة الواحدة ، يقبضهــا بعد انتهاء الحقن الثلاث •

كانت بداية طيبة ، وبعد أسبوع أو اسبوعين على الاكثر تطير شهرته فى الحى ، وتسعى اليه الزبائن ، ويغدو دكتور الحى الجــديد كما كان دكتور الحى القديم •

* * *

ومضى فى طريقه يطوح بالحقيبة الجلدية فى يسراه ويحيى بيمناه من يمر بهم ، ويتطلع الى وجوههم ببسمة مترددة ، وعين متفحصة ، تنقب خلف قناع السلامة الذى يكسو محياهم ، ويتمتم بين الحين والحين لنفسه.

ـ ياسلام يادكتور .. الراجل اللى هناك ده خرع قوى .. عاوز له كام حقنة كلسيوم .. ياعينى على الجدع آبو وش اصفر ده لو خد له دستة فيتامين . !

ووصل الى دكان متولى ، فوجده يرشف كوبا من الشاى ، ويضغط شفتيه الغليظتين كأنما يمتص شيئا تحت لسانه ، فقال وهو يضع الحقيبة فوق البنك ويبسط كفه مصافحا .

ـ السلام عليكم ورحمة الله ! ..

فتدلت شفة متولى السفلى ، ومد له أصابع مرتجفة وهو يقول :

ـ سلام ياعم .. ! اقعد استريح .. الواد راح مشوار وجاى .. !

ولم يقعد رمضان ليستريح ، وانما استأذن فى غلى الابرة .. فقاده متولى الى باب منخفض فى أقصى الدكان . واحتاج رمضان الى لحظات حتى ألفت عيناه الضوء الخافت الذى يتسرب الى المخزن ، واستطاع أن يرى ما حوله .. مائدة خشبية قديمة ، وكرسيا استغنى عن رجله الرابعة بالاستناد الى الحائط .. وعدداً من الشوالات والصفائح .. أكثرها قديم فارغ ، وتعثرت قدمه فى كرات من البصل تناثرت من شوال قديم ممـــدد على الارض ، ومط متولى شفتيه ، ونفخ سطح المنضدة الخشبية بقوة ، فتطايرت عنه عاصفة من التراب ، ثم رفع ذيل جلبابه ومسحها قائلا :

ـ يالله ياعم .. شوف شغلك .. يجعل فى ايدك الشفا .. !

وضاق رمضان بكلمة (ياعم) التى يصر متولى على استعمالها ، فقال وهو يفتح حقيبته ليخرج أدواته :

ـ باذن الله •• أنا ايدى فيها البركة • كانوا دايما يقولو لى يادكتور انت كلك بركة •• يادكتور فيك شيء لله •• يادكتور •••

فقاطعه متولى وهو ينحنى ليخرج من الباب الواطىء :

ـ طيب شد حيلك •• أهو الواد زمانه جاى •• ياعم •• !

فأشعل رمضان السبرتو فى ضيق•• ووقف يرقب الماء وهو يغلى•• ويستعيد ذكرى مجده فى الحى القديم •• واستغرقته الذكريات الحلوة فلم ينتبه الا عندما سمع فى الخارج صوتا متباكيا يخور كالعجل :

ـ آ ا ا ه •• والنبى يابا •• دى بتوجع ••

فقال متولى فى شراسة :

ـ جرى ايه ياواد •• ؟ انت صغير ؟ ادخل خد الحقنه ••• أحسن أقطم رقبتك •

فابتسم رمضان فى ثقة ، وأفرغ البنسلين فى الحقنة وبلل قطعة من القطن بالكحول •• ثم طبع على وجهه الطويل ابتسامة تشجيع ، وانحنى لينقذ طربوشه من الاصطدام بأعلى الباب ثم خرج الى الغلام •

ومع أن رمضان كان يتوقع أن يخافه الغلام قليلا، الا أنه لم يتوقع على الاطلاق هذا الرعب الذى كسا وجهه •• فجعل عينيه تتسعان وتبرزان الى الخارج وجبهته تنعقد وتنبسط فى عصبية •• وذراعه تمتد أمامه وفيها أصبع مسددة الى وجهه وهو يصيح فى فزع :

ـ هو ده اللى حيدينى الحقنة ••؟! آ •• آ •• آه !

وبهت رمضان من هذا الاستقبال العدائى ، لم يسبق له أن رأى الغلام ، وهو واثق أن ليس بينهما عداوة بأى صورة من الصور .. فوقف فى مكانه عند الباب الواطىء متخشبا.. يداه مشرعتان أمامه.. فى احداهما الحقنة وفى الثانية القطنة .. وعلى الوجه الطويل ابتسامة التشجيع بعد أن تجمدت وتحولت الى ابتسامة بلهاء ..! وصاح متولى بالغلام وهو يشير نحوه :

ــ ايه ياواد .؟ مالك .؟ مش عاجبك ...؟ ماهو جدع زى الورد أهه ..

فكف الغلام عن الخوار وأخذ يتطلع الى رمضان متفحصا لحظة .. ثم عادت عضلات وجهه تشنج ، وانطلق الخوار مرة أخرى .. ووجد رمضان فى نفسه قدرة على الكلام فتمتم :

ــ ماتخافش ياشاطر .. أنا ايدى خفيفة .

وخطا الى الامام خطوة واحدة .. ولكن الغلام ارتد الى الخلف فصاح به أبوه محنقا :

ــ ما تتعدل ياواد انت ياواد .. انت حتدخل تأخذ الحقنة والا أدشدش دماغك .

ــ آ ... آ... .. ماليش دعوة يالله .. مش واخد حقن .. هه يالله هه .

وفى تلك اللحظة دلف الى الدكان شاب فى جلباب من الزفير يمسك فى يده عصا فأزاح الغلام من طريقه جانبا ، وقال لمتولى وهو يضع قرشا على البنك :

ـ ادينى باكو معسل •• مساء الخير •

فقال متولى :

ـ يامرحب •• سى محمد •

واستدار ليحضر المعسل •• فلمح رمضان الغلام ينسل نحو البـاب ثم يطلق ساقيه للريح فصاح فى فزع :

ـ الحق الولد جرى •

فقفز متولى من على البنك وهو يصيح :

ـ بتجرى ياواد •• طيب •• والله لاقطم رقبتك الليلة دى •

واختطف العصا من يد سى محمد وانطلق بها خلف الغلام فى الشارع وهو يصرخ :

ـ وقف عندك •• امسك ياجدع •• حلق يامرسى على الواد • • اوعى يزوغ منك يامصطفى •

وتحرك رمضان الى باب الدكان ، ووقف يرقب المطاردة •• وكانت ذراعاه مازالتا مشرعتين بالحقنة والقطنة ، ولكن الابتسامة كانت قد اختفت من الوجه الطويل وحل محلها وجوم أبله•• ماهذه الفضيحة يارمضان ••؟ أول زبون لك فى الحى يفضحك بهذا الشكل •• ؟ وماذا فيك حتى يخاف الغلام الى هذه الدرجة ••؟ ان يدك خفيفة •• والله يدك خفيفة جدا ••

والتفت الى سى محمد الذى كان يرقب المطاردة بقلة اكتراث ،وأخذ يقول له فى همس :

ـ دا أنا ايدى خفيفة •• والله خفيفة خالص •• ماحدش يحس بيها

وكانت المطاردة قد انتهت بالامساك بالغلام فانهال عليه أبوه بالعصـا

وقامت قيامة الشارع . وغادر الناس الوادعون دكاكينهم ، وتجمعوا حول متولى وابنه وحالوا بينهما ، ثم عاد الموكب الى الدكان .. متولى يجر ابنه في يده ، والعصا في يده الثانية .. ووراءهما حشد من أهل الشارع ، يضم الرجل الخرع الذى يحتاج الى حقن الكالسيوم ، والرجل ذا الوجه الاصفر الذى يحتاج الى دستة حقن فيتامين .. وكل زبائن رمضان في المستقبل .

واستقبلهم رمضان بالحقنة في يمناه والقطنة في يسراه .. وعلى الوجه الطويل محاولة لابتسامة ، وأخذ يغمغم :

ـ أنا ايدى خفيفة .. والله خفيفة .

ولكن صوته ضاع بين لغط القوم وضجيجهم . كان الغلام يخور كالعجل ، ويفرك عينيه بأصابعه ليمسح دموعا لم تسل بعد على خديه . وكان متولى يصيح به متوعداً :

ـ موتك الليلة دى حيكون على ايدى ان شاء الله !

وكف الغلام عن فرك عينيه ، وأخذ يتطلع الى رمضان ، وساد الصمت الجميع في ترقب ، وأخيراً انطلق الغلام قائلا :

ـ مش عاوز ده اللى يدينى الحقنة .. أروح المستشفى بكره آخدها وبلاش الجدع ده .

وسقط قلب رمضان بين ضلوعه .. وارتعشت يده التى تمسك بالحقنة .. وحاول أن يتكلم .. فأخذ يتمتم :

ـ دا انا ايدى خفيفة .. والله ياجماعة خفيفة خالص .

ومرة أخرى ضاع صوته وسط الضجة .. فقد عاد متولى يضرب

ابنه فى قسوة ، وتدافع الجمع ليحول بين الغلام والعصا ، وانطلقت أصوات تصيح :

ـ خلاص بلاش يأخذ الحقنة من الجدع ده .

ـ خليه يروح المستشفى مادام الجدع ده مش عاجبه .

ـ بلاش الجدع ده .. وانا أجيب له واحد كويس .

كان المتكلمون هم زبائن المستقبل .. يامصيبتك يارمضان .. يادكتور رمضان.. سمعتك فى خطر .. وكل هذا من تحت رأس هذا الغلام اللعين .. كان أسود يوم فى حياتك لما سعيت لان تعطيه الحقن .

وصاح متولى فى الجميع وهو يشير نحوه بالعصا :

ـ ماله ده .. ؟ مش عايز يدى له الحقنة ليه .. ماهو جدع غلبان ومنكسر أهه .. طيب والله .. ثلاثة بالله .. ماهو واخد حقن الا منه .

وتضعضع رمضان .. فتراخت ذراعاه بالحقنة والقطنة . . وأحس بحبات من العرق تنفذ من تحت طربوشه وتنحدر الى جبهته .. لقد جاء ليسعى للقب دكتور .. فخرج بلقب عم .. ثم جدع .. وأخيراً انتهى به المطاف الى انه غلبان ومنكسر ..! وكان يفكر فى الانسحاب عندما سمع الغلام اللعين يقول :

ـ آ .. آه .. دا خدت منه حقنة مرة واحدة وقفت رجلى جمعة .

كذاب .. والله كذاب .. انه لايعرفه ..! وأراد أن يصرخ بهذه الحقيقة فى وجه زبائن المستقبل.. ولكنه لايدرى ماذا أصابه .. فعندمافتح شفتيه ليصيح .. لم يصدر منها الا همهمة خافتة متخاذلة :

ـ دا انا ايدى خفيفة .

ولم يعبأ به أحد .. وأخذوا يتطلعون اليه في صمت وفضول .. وأحس تحت وقع عيونهم بانكسار وهوان ، فلم يستطع أن يعترض ـ كما كان ينوى ـ عندما دعاه متولى الى العودة للمخزن ، فدلف الى الدكان فى تخاذل ، ونسى أن ينحنى لينفذ من الباب الواطىء .. فاصطدم طربوشه بأعلى الباب وانزلق الى مؤخرة رأسه انزلاقا شديدا ، ورأى متولى قد حمل الغلام الذى استسلم ، وألقاه فوق المنضدة الخشبية ثم كشف عن فخذه . وبدأ الغلام يخور كالعجل فلطمه أبوه على رأسه فى عنف فسكت ، وساد صمت متحفز .. فمد رمضان يده بالقطنة ودلك فخذ الغـلام بالكحول ، ثم مد يده بالحقنة.. ولكنه عاد يردها بسرعة، فقد كانت ترتجف ، والحقنة تتراقص بين أصابعه .. كان قد فقد السيطرة على أعصابه .. وهويعرف تماما أنه لو غرس الابرة فى فخذ الولد وهو فى هذه الحالة فسوف تنكسر لا محالة .. كان فيموقف حرج لم يسبق له أن مر به فى حياته ..فالغلام يرقد أمامه فى استسلام ، ومتولى يرقبه بعين الصقر ، وزبائن المستقبـل يقفون فى الخارج ليحكموا له أو عليه ، وهو لايستطيع أن يغرس الابرة فى فخذ الغلام .

وأراد أن يضيع الوقت حتى يستعيد السيطرة على أعصـــابه فخلع طربوشه ووضعه على الكرسى الأعرج .. ومسح عرقه بكم جاكتته . . وأخذ يبلل القطنة بالكحول، ويتباطأ فى ذلكانتظارا للفرج .. وأخيراجاء الفرج فى صوت يصيح فى الدكان :

ـ يالله ياعم متولى .. هات باكو المعسل.. أنا حااستنى سنة والا ايه؟
كان سى محمد قد مل الانتظار فقال متولى :
ـ لامؤاخذة ياسى محمد .. حاضر ..

وترك الغلام مع فريسته وجها لوجه ، بعد أن تهدده بالضرب انعاد

الى الصياح ، وما كاد الغلام يشعر بخروج أبيه حتى أدار رأسه ونظر الى رمضان •• والتقت عيونهما •• وخيل لرمضان أن فى عينيه خبثا شـديدا، فحاول أن يبتسم له مستعطفا •• وبدأ يربت على ظهره ، ويهمس له فى ذلة :

ـ أنا ايدى خفيفة •• والله مافيه حاجة حتوجعك •• مش حتحس بحاجة أبدا •• دأنا ايدى ••

ولكن الغلام قاطعه فى شراسة يخالطها احتقار :

ـ ماتخلصنا بقى وبلاش غلبة ••

وآشتد ارتباك رمضان •• وتضاعف اهتزاز يده •• بينما رقد الغلام وأخفى وجهه بين ذراعيه فى انتظار •• ومد رمضان يده بالابرة •• فلم تكد تمس جلد الغلام ، حتى رفس بساقه فى الهواء وصرخ •• فجفل رمضان ، وقفزت الابرة من موضعها وشرعت تتراقص فوق فخذ الغـلام الذى تعالت صرخاته حتى صاح أبوه به من الخارج :

ـ جرى ايه ياواد •• أجيلك تانى ؟

فكف الغلام عن الصراخ ، وعاد رمضان يدلك فخذه بالكحول •• ثم مسح عرقه بكم جاكتته •

واستعان بالله •• ومد ذراعه بالابرة •• فانطلق الغلام يصرخ • • ويرفس •• وأخذت الابرة تتراقص بين أصابع رمضان ، فرد يده بسرعة وعاد يمسح عرقه بكم الجاكتة •

كانت المشكلة لاحل لها •• لو غرس الابرة لانكسرت •• ولضربه متولى بدلا من أن يضرب الغلام ، ولو امتنع عن اعطائه الحقنة لسخر منه زبائن المستقبل المتجمهرون فى الخارج •• ولفقد الى الأبد كل أمل فى

لقب دكتور •• وتلفت حوله باحثا عن مخرج •• فرأى المخزن مصيدة محكمة الاغلاق •• فارتد بصره فى يأس الى المنضدة •• ووقعت عيناه على الكرسى الأعرج •• ورأى الطربوش •• فوجد المخرج •• ولكنه مخرج صعب •• يحتاج الى خفة يد •• ولو انكشف •••

وتدفق العرق على جبينه •• وتسللت قطرة منه الى عينيه فألهبتهما ، فمسح جبينه بكمه •• واستقر رأيه •• وبيد ترتجف وخز الغلام بالابرة وقبل أن يتمادى فى صراخه اللعين أسرع بافراغ الابرة فى الطربوش •• ثم دلك موضع الوخز بالقطنة وقال فى تلعثم :

ـ خلاص ياسيدى •• حسيت بحاجة بقى ؟

والتفت الغلام اليه فى دهشة •• والتقت نظراتهما مرة أخرى ، ولكن رمضان لم يستطع أن يواجه عينى الغلام ، فحولهما سريعا ، وأخذ يجمع أدواته ويضعها فى الحقيبة الجلدية • وكان لايزال يرتجف ، فسمع الغلام يقول :

ـ مالك بتترعش ليه •• انت ماديتش حقن قبل كده ؟

وكان فى صوته تشف •• فأغلق الحقيبة بسرعة •• وتناول طربوشه فاذا بالسائل الابيض يترجرج فى قاعه ويكاد ينادى العيون لتراه •• فأسرع بوضع الطربوش على رأسه •• وضغطه فوق جبهته بشدة •• ثم حمل الحقيبة وألصق على شفتيه ابتسامة •• وخرج من المخزن وهو يهتف :

ـ مش قلت لكم ايدى خفيفة ؟ شفتم خفيفة ازاى ؟

ولكنه كف عن الكلام بغتة ، ووقف يحدق فى باب الدكان بذهول •• لم يجد زبائن المستقبل •• لقد انصرفوا قبل أن يشهدوا خفة يده •• ثم

يكن هناك الا متولى يجلس الى الباب يمصمص بشفتيه كأنمـــا يمتص شيئا تحت لسانه .

وأفاق من ذهوله على متولى يقول له

ـ امسح عرقك ياعم قبل مايطسك الهوا .. ايه ده .. انت بتعرق ملح ؟ ! ..

فأسرع بكمه الى جبهته ، ومسح السائل الابيض الذى تســـلل على جبينه .. وكبس طربوشه بعنف فى رأسه .. ثم خرج الى الشارع الخاوى .

الشارع الأبيض

ـ الميتين ياصاحب النصيب ••

ـ معانا أمواس ومحافظ ••

ـ فانلات •• شرابات ••

ـ ورنيش •• بويه ••

ـ الخمسية •• اسعاف •• البريمو ••

ووسط هـذه الدوامة من نداءات الباعـة •• ألقى عباس بنفسه الى مقعد ••• وألقى الى المنضدة الرخامية أمامه بالحقيبة الصغيرة التى يحملها فى يده ، وكان فى هـذه الحقيبة رداء منزلى أحضره معه من الاسكندرية استعـدادا لقضاء ليلة فى القاهرة •• ليلة واحـدة فقط يعـود بعـدها الى الاسكندرية• ولكنه لم يعد فى حاجة الى هذا الرداء الآن•• لقد قرر أن يعود من فوره الى الاسكندرية •• حتى هذه الليلة الواحدة لم يعد فى حاجة اليها وكل ما عليه أن يفعله الآن هو أن ينتظر ساعتين فى هذا المقهى المواجـه لمحطة السكة الحديد حتى يحين موعد أول قطار الى الاسكندرية فى الساعة الثامنة •

وصفق تصفيقة خفيفة يدعو بها الجرسون •• ثم غرق مع أفـكار قاتمة ينتحها من أغوار بئر من الأسى سحيقة فى نفســـه •• بئر كانت لاتفتأ تجذبه الى أعماقها المظلمة رغم ضجيج المقهى الذى يحيط به ورغم نداءات الباعة وتقحمهم عليه •• كل يريد أن يبيعه أى شىء وبأى ثمن•• غير مبالين بوجومه، وشرود نظراته عنهم• وعن كل مايحيط به فى المقهى••• والحق أنه كان يحس بصداع عنيف يكاد يحطم جدران جمجمتـــه •• صداع لايدرى له سببا •• ولا يدرى متى بدأ يشعر به •• وآن كان واثقا كل الثقة بأنه وصل الى فيلا أحمد أفندى عاصم مرحا سعيدا متفائلا ••

***

ـ ورنيش ••• ! بويه ••

وقبل أن ينتبه عباس كان ماسح الاحذية قد وضع صـــندوقه على الأرض ، وأمسك بحذائه .. وهم عباس بأن يعترض ، ولكنه عدل عن ذلك .. اذ وجد فيه شيئا من التسلية قد يصرفه عن هذا الصداع العنيف فمضى يرقب الرجل وهو يعمل فى حذائه.. حتى اصبح لامعا براقا كالمرآة خلال لحظات قليلة .. فنقده قرشـــا .. ثم عاد الى شروده ... كان يسال نفسه: أمن الممكن أن تصبح حياته لامعة براقة كهذا الحذاء؟ انه فى حاجة الى يد تعمل فى مستقبله كما عملت يد هذا الرجل فى حذائه .. يد تنفض عنه الفقر وما ينتج عنه من متاعب ومشكلات .. لقد ظن خلال الأشهر الماضية أن هذه اليد هى يد أحمد أفندى عاصم جارهـــم القديم الثرى ، وصديق والده .. فسعى اليه يطلب يد ابنته ملكة .. وحضر الى القاهرة اليوم ليحقق هذا الغرض .. ولكن كل شىء انهار فجـــاة ، ولم يترك امامه مجالا للتردد ، فينبغى ـ بعد ماحدث ـ ان يعودالى الاسكندرية لما جاء منها ، ثم يسرع فى البحث عن يد أخرى تنفض عن حيـــاته تراب الفقر ومتاعبه ، وتجلو عنها كل مايطفىء بريقها من المشكلات ...

وانتبه عباس من شروده على الجرسون وهو ينحنى أمامه فى معطفه الأبيض ، ويقول فى أدب :

ـ تشرب ايه سيادتك ؟

ـ مظبوط .. واحد مظبوط .. !

قالها عباس وهو لما يفق من شروده تماما ، وهم الجرسون بالابتعاد صائحا صيحته التقليدية ..

ـ متريو ... !

ولكن عباس عاد يناديه قائلا :

ـ اسمع من فضلك ..

ـ أيوه ياسعادة البيه •• ؟

ـ اديني اسبرينة وكباية ميه الأول •• بس قوام ! ••

فقد اشتد الصداع في رأسه حتى تحول الى طرقات ترج جبهته رجا لايهدأ ولا يرحم • ان من المستحيل أن يكون ماحدث منذ ساعة هو مصدر هذا الصداع الرهيب •• نعم •• من المستحيل أن يكون كذلك •• فكل مافي الأمر أنه جاء ليخطب ملكة بنت أحمد أفندي عاصم •• ثم عـــدل عن هذه الخطبة بمحض ارادته ومطلق حريته•• وهو غير حزين لما حدث •• اذ لامجال للعاطفة في هذه الخطبة •• أو على الأقل •• لقد جعـــل للعاطفة المحل الثاني بعد المنطق والتفكير الرياضي السديد •• ان هـــذه الخطبة بدأت عملية حسابية ليس غير •• مجرد تصميم هندسي رسمه لمستقبله كما يرسم أي تصميم لفيلا أو عمارة •• وهو لن يعدل في هـــذا التصميم •• كل مافي الامر أنه سيغير « المونة » التي سوف يستعملهـــا في بناء مستقبله •• كانت ملكة هي المونة •• فعليه الآن أن يستبدل بهـا مونة أخرى •• وانواع المونة كثيرة أمامه •• انها ملء البصر •• وملء اليد •• في الاسكندرية وفي القاهرة ، وفي غير الاسكندرية والقاهرة من البلاد التي له فيها أقرباء أو أصدقاء •• كل ماعليه أن يبحث من جديد •• وأن يكتب الى أقربائه وأصدقائه ليبحثوا له عن « مونة » جديدة •• (أوعن عروس جديدة ••) فليس من اللائق أن يطلع هؤلاء الأقرباء على وجهة نظره هذه في الزواج •• ان امه نفسها تنظر الى هذا الأمر نظرة عاطفية خالصة •• لقد كاد يدخل معها في مناقشة حامية عندما أنبأها أول مرة برغبتـه في الزواج •• فقد قالت له ووجهها يرقص بالبشر :

ـ دا يوم المنى ياعباس •• أنا حاقلب لك الاسكندرية كلها ••وحافرز لك بناتها بنت بنت •• لحد ما أختار لك أجمل واحدة فيها ••

ـ مش مهم قوى انها تبقى أجمل واحدة •• المهم انها ••

فقاطعته فى لهجة من تعرف رغباته الدفينة :

ـ طبعا لازم تكون من أحسن عيلة ؟!..

ـ ولا دى كمان .. المهم عندى انها تكون دفيانة .. يكون عندها قرشين ! ..

فنظرت اليه فى استنكار هادىء وقالت عاتبة :

ـ يابنى ده كلام تقوله برضه .. ؟ .. المهم الأصل والأخلاق .

ـ ياست الكلام ده بطل خلاص .. احنا فى دنيا كل حاجة فيها القرش ! ..

فاشتد استنكارها .. وضربت صدرها بيدها وهى تقول :

ـ عباس !.. ياندامتى !.. انت يابنى اتهفيت فى عقلك ؟ .. بقى هى دى تربيتى فيك ؟ ..

ولولا ان عباس أدرك أن مثلها ومثله لايلتقيان .. فهما من جيلين مختلفين .. تربى جيلها على أنقاض من حضارة الشرق ومن مثل القرون الوسطى .. وتربى جيله على دعائم من حضارة الغرب ومن مادية القرن العشرين .. لولا أنه أدرك ذلك لاشتبك معها فى مناقشة كانت ستؤدى حتما الى تحطيم أملها فى انها أنجبت فأحسنت تربية ما أنجبت ..

ولكنه لم يشأ أن يفسد عليها أحلامها فى أخريات أيامها .. فتراجع عن رأيه ، وزعم لها أنها أخطأت فهمه ، فقال لها :

ـ انتى مش فاهمانى .. أنا أقصد ان ماهيتى ماتكفيش أعيش اللى حتجوزها عيشة مناسبة الا اذا كان لها ايراد يساعد .. مش كده والايه ؟

ـ ايراد ايه يابنى ؟ •• المهم ربنا يدى لك انت وهى راحه البال ••
هو المرحوم أبوك لما اتجوزنى كانت ماهيته ايه •• ؟ خمسة جنيه •• وأنا
لا عندى ايراد ولا يحزنون ! ••

ومضت أمه فى حديث طويل لم يكن يعنيه فى شىء •• فهو واثق أنها تعيش فى سراب ذكريات جيـــل انقضى بمثله وبطرائق حيـــاته •• وانها لن تفهم منطقه الرياضى الذى تعود أن يقيس به حياته •• فمنـــذ تخرج فى كلية الهندسة تعلم أن يستبعد من التصميمات التى يرسمهـــا بسببه دن المشاعر والعواطف •• فلا يقيمها الا على الحقـــائق المادية • وكان فى حياته حقائق عليه أن يشيد مستقبله على أساسها •• وأول هـــذه الحقائق أنه فقير مات أبوه عبد الجواد أفندى •• وكان موظفا يتقاضى فى أخريات حياته مرتبا لابأس به •• ولكن موته حول هذا المرتب الى معاش ضئيل •• وحتى هذا المعاش قد انقطع قبل أن يتم دراسته فى كليـــة الهندسة بجامعة الاسكندرية ، فاضطر أن يستعين بموارد مبهمة ليواصل الدراسة •• اشتغل كاتبا حينا فى مصنع بلاط •• وسعى فى الشـــوارع مرة كسمسار مساكن خالية •• ودخـل صالات المزادات أياما ليتجر فى الأثاث القديم •• حتى حصل على البكالوريوس والتحق بوظيفة مهندس فى بلدية الاسكندرية ••• هذه حقيقة أولى •• ثم انه طمـــوح •• والوظيفة لاتعنى الا الحياة فى حدود ضيقة •• أما الآفاق المتسعة للعيش الرغد فهى فى العمل الحر ، وهو مهندس ، فعليه أن يكون مهندسا ومقاولا فى آن واحد •• ومن ثم يتدفق المال بين يديه ، فيمتلك عربة ••• وفيلا •• ويتحكم فى مصائر عشرات من الناس بدلا من أن يتحكم فى مصيره عشرات من الناس •• ولـكن العمل الحر يحتاج الى رأس مال يبـــدأ به وأيسر السبل ـ وأضمنها ـ للحصول على رأس المال هو أن يتزوج بفتاة ثرية •• نعم •• فالفتاة الثرية هى « المونة » التى يشيد بها مستقبله فتخلل عشرات ممن يعرفهن •• وانتهى الى ملكة بنت أحمد أفندى عاصم ••

وعندما انتهى الى هذا الرأى صارح أمه به .. فلمع الفرح في عينيها اللتين أخمد بريقهما المرض والشيخوخة .. وهتفت :

ـ ملكة بنت نازج هانم .. ؟ .. دى ست البنـــات .. وأمها ست الستات ! .. دى زمانها بقت عروسة تقول للقمر قوم وأنا أقعد مطرحك..

فضحك عباس لحماسها الساذج وقال :

ـ وايش عرفك .. ؟ دا انتى ماشفتيهاش بقى لك سبع سنين على الأقل ! ..

ـ دى من صغرها زى القمر ياعباس .. أهى دى صحيح العروسة اللى تنفعك .. وأمها نازج هانم صاحبتى وحبيبتى الروح بالروح ... وأبوها أحمد أفندى عاصم صاحب المرحوم أبوك .. دول كانوا مايفترقوش عن بعض ..

ومضت أمه تعدد حسنات ملكة .. ولم يكن يعنيه من هذه الحسنات شيء ، فقد اختار ملكة لمميزات لاتخطر على بال أمه .. أولهـــا أن أباها ثرى من أصل تركى .. وثراؤه ليس فاحشا الى الحد الذى يجعله يترفع عن مصاهرته .. فثروته ـ كما كان يقدر ـ لاتتجاوز فيلا صـــغيرة فى حلمية الزيتون ، وبضعة أفدنة ، ورصيدا فى البنك لايتجاوز الألف جنيه الا قليلا . وثروة هذا قدرها هى أنسب شيء لتحقيق طموحـه .. فهـو لايريد الا مبلغا يبدأ به العمل الحر . ثم ان أحمد أفندى عاصم كان ـ كما تقول أمه ـ صديقا لوالده ، وقد نشأت هذه الصداقة خلال السنوات التى سكنوا أثناءها فى حلمية الزيتون .. فكان أبوه واحمد افندى عاصـم من أعيان الحى : أولهما لوظيفته .. وثانيهما لثروته ـ رغم تواضعها ولأصله العريق .. ولقد نقل أبوه الى الاسكندرية منذ سبع سنوات .. فافترق عن أحمد أفنـــدى عاصم وانقطعت أخباره عنه .. فاذآ تقدم عباس لخطبـــة

ملكة فسوف يستقبله أحمد أفندى عاصم على أساس من صداقته القـديمة لأبيه ، وعلى أساس من سمعته كابن عين من أعيان الحى .. لن يسـأل عنه .. ولن يعرف شيئا عن الموارد المبهمة التى لجأ اليها بعد وفاة أبيه .

كان هـذا هو ماجعله يفضل ملكة على غيرها . واذا كان لابد من عاطفة .. فلا بأس فى أن ينفخ في رماد خاب لحب قديم كان بينهما .. فقد كان يحبها وهو تلميذ فى الثانية الثانوية .. كانت تفتنه ببشرتهـا الناصعة وجسدها الريان .. وبشعرها الاصفر الوهاج الذى ينسدل على ظهرها حتى وسطها .. وكانت هى تحبه أيضا .. وكثيرا ما قضـيا ساعات حلوة عندما كانت تحضر مع أمهـا لزيارة أمه .. كانا يمرحان كثيرا .. ويضحكان كثيرا . . وربما تشـاجرا أيضا . . وآن كان تشاجرهما حلوا رقيقا .. خصوصا اذا أسرف فى التفكه على لـكنة أمها التركية .. انه ليتذكر الآن يوم وقفت أمها نازج هانم فى المطبخ تعلم أمه كيف تطبخ السمك .. ووقف هو معها ليتفرجا عليهما .. فلم يملك نفسه من الضحك عندما سمع نازج هانم تقول فى لكنتها التركية :

ـ خرط بصل تمام ست أم عباس .. صفى طماطم تمام ست أم عباس .. ولع تحته النار خفيف خفيف .. ييجى يمك عفارم ست أم عباس !..

وأغضب ضحكه ملكة فقالت له عاتبة :

ـ تضحك على نينة ..؟.. مش عاجبك كلامها ؟ ..

واستهواه غضبها الطفولى ، وأراد أن يمعن فى اغاظتها ، فقال مقلدا لكنه أمها :

ـ خرط بصـل تمام ست أم عبـاس .. صفى طماطم تمام ست أم عباس ..

واغتاظت ملكة ، ودقت الارض بقدميهـا فى عصبية وهى تقول مهددة :

ـ بتعوج على نينة ؟! •• والله لاقولَ لهـا !•• والله لاقول لها !•• هه !•• ولم يعبأ بتهديدها ، ومضى فى تقليد أمها :

ـ ولع تحته نار خفيف خفيف •• ييجى يمك عفـــارم ست أم عباس ••

وكانت ملكة تصيح بين كل مقطع منادية أمها :

ـ نينة •• نينة •• !

واجتذب صياحها وضحك عباس انتباه أميهما ، فسألت نازج هانم :

ـ فيه ايه ملكة •• ؟ •• مالك •• ؟ ••

وأدرك عباس أن المزاح سينقلب الى علقة ساخنة من أمه ، فهمس لملكة مستعطفا :

ـ ملكة •• اوعى تقولى •• اوعى تقولى لها •• حازعل منـــك •• حاخاصمك !••

وعادت نازج هانم تسأل ابنتها :

ـ ماتتكلمى بنت •• ؟ •• عايزة ايه ؟

فعاد عباس يهمس لملكة :

ـ اخص عليكى •• عاوزانى انضرب علقة ؟ ••

وعندئذ لاح فى عينيها الصغيرتين جزع صبيانى حلو سعد به سعادة طاغية •• وكررت أمها سؤالها فى حدة ، وترددت ملكة قليلا ثم قالت :

ـ عاوزة قرش أشترى شكولاته أنا وعباس •••

وانفجرت نازج هانم ساخطة :

ـ خرسيس •• أدب سيس ••

وأغرقت أمه في الضحك وأعطتهما قرشا ، فانطلقا معا الى الشارع يضحكان ••

كم كانت تحبه •• وكم كان سعيدا بحبها •• وان كان الزمن •• والسن •• والبعد •• قد تآزرت جميعا لتقضي على هذا الحب •• الا أنه ـ وقد اهتدى بمنطقه الهندسي الى أنها أفضل مونة يشيد بها مستقبله ـ قد أمضى الايام السابقة ينفخ في الرماد الخابي حتى رد اليه بعض الوهج •• أو خيل اليه ذلك •• فركب القطار من الاسكندرية الى القاهرة صباح اليوم فوصل في الساعة الثالثة والنصف وأخذ أول قطار الى حلمية الزيتون •• وفي الساعة الرابعة كان ينحدر الى الشارع الأبيض في طريقه الى فيلا أحمد أفندي عاصم التي تقع في نهايته ••

***

وجاءه الجرسون بالقهوة والاسبرين ، فابتلع قرصا ، ثم أشعل سيجارة وبدأ يرشف القهوة في بطء وهو يستعيد ما مر به منذ انحدر في الشارع الأبيض •

سار يتطلع الى ما حوله ، وقد جاش في صدره حنين دافق الى مرتع صباه ومغنى هواه •• فهو قد نشأ في هذاالشارعالأبيض صبيا ••وانطبعت في عينيه منذ صباه صور المنازل التي تمتد على الجانبين ، وطالما كان يعجب من السر الذي طبعهذا الشارع باللون الأبيض دون شوارع الدنيا ! •• كان يظن أن بياضه يرجع الى الأحجار الجيرية التي شيدت منها منازله •• واستعملت في رصف الطريق نفسه •• ولكنه الآن ـ وقد عاد اليه بعد سبع سنوات ـ يرى البياض يغمر الشارع رغم أن الاحجار الجيرية مطلية بألوان متباينة ، ورغم أن أرض الطريق أصبحت مرصوفة بالأسفلت ••• ولكن الشمس في هذا الشارع كانت ساطعة ناصعة

تمس أشعتها السحرية كل شيء في الشارع ثم ترتد عنه وقد أحالتـــه أبيض صافيا ..

ومضى فى طريقه وهو يحس بأن كل خطوة يخطوها تعـود به الى معلم من معالم الصبا الفائت .. ففى هذه الحارة « حارة عرفة » كان يلعب بالكرة الشراب مع صديقه حامد .. وكان يشترى الحلوة فى طريقه الى المدرسة من هذا البقال الذى يراه الآن بجلبـابه .. نفس الجلبـــاب ذى الخطوط العريضة .. ونفس الطاقية الصوف الطويلة .. ! وهذه القهوة ـ قهوة الأرناؤوطى ـ كان كثيرا ما توفده أمه اليها ليدعو أباه كلمـــا احتاجت اليه فى أمر ما .. وكان أبوه كثيرا مايراوغه حتى تنتهى عشرة الطاولة التى يلعبها مع أحمد أفندى عاصم ، فهو يلقى النرد صائحا :

ـ دش .. دش يازهر .. عاوز ايه ياواد ؟

ـ نينة عاوزاك .. !

ـ طيب دبش .. ! .. عاوزانى ليه ؟ .. سه يك ؟ .. أما زهر نتن صحيح .. ! .. ياواد عاوزانى ليه .. ؟

ويضحك أحمدأفندى عاصم ساخراً ويغلق الطاولة ويقول :

ـ خلاص العشرة .. سيب طاولة ياغشيم .. وقوم كلم حريم .

انه ليتذكر كل هذا الآن وكأنما حدث أمس .. كل خطوة يخطوها فى الشــارع الأبيض تتحدى الســـنوات السبع التى انقضت .. فتبعث الذكريات قوية عارمة من أعمـــاق الماضى .. فتتمثـــل حاضرا دافئـــا نابضا بالحياة ..

واقترب من البيت الذى كانوا يسكنونه ، فخفق قلبه وهو يتطلع الى نوافذه .. لم يتغير فيه شيء .. حتى ذلك اللوح الزجاجى الذى كسره وهو

صبى •• لم يستبدل به غيره حتى الآن •• وهذا البيت الصغير الوضيع الذى يقبع على ناصية حارة رءوف •• انه بيت صديقه وزميل دراسته حامد •• ترى كيف حاله الآن •• ؟ •• ان آخر مايعلمه عنه أن أباه عجز عن الانفاق عليه وهو فى السنة الثانية الثانوية بسبب مرض أقعده عن العمل ، فانقطع عن الدراسة •• ولجأ أبوه الى أحمد أفندى عاصم فتوسط له حتى التحق عاملا باليومية بالسكة الحديد • ولقد أوشك هذا التغيير الذى طرأ على حياة حامد ومستقبله أن يضعف وشائج الصداقة القوية التى كانت تربطهما ، وخاصة عندما فرح حامد بالمرتب الذى يقبضه ، وأحس بأنه أصبح رجلا يتكسب ، فامتنع حينا عن أن يلعب الكرة الشراب فى الشارع معه ، وكان لايفتأ يردد له ناصحا :

ـ ياعباس مايصحش ••• احنا مش صغيرين ••• آحنا بقينا رجاله •• !

ولا يشعر عباس بهذه الرجولة الجديدة فيقول له مغريا :

ـ مايصحش ياحامد ولا خايف لأغلبك ؟ ••

ـ ياجدع بلاش لعب عيال ••

ـ انت اللى مابتعرفش تلعب ••

ـ ياابنى ••• أنا راجل موظف فى الحكومة دلوقت •• مش بتاع شوارع ولا كرة شراب •• !

وكان عباس يضيق بهذه اللهجة الجديدة من صديقه •• ويحس فيها بنوع من التعالى والتكبر •• الا أن هذا ـ لحسن الحظ ـ لم يدم طويلا ، فبعد أسابيع قليلة ضاق حامد نفسه بشخصيته الجديدة ، وتغلبت عليه نوازع الصبا ، فعاد اليه يلاعبه ويسامره •• وظل الود بينهما متصلا حتى سافر مع أبيه الى الاسكندرية • ألا يحسن به أن يمر ببيت حامد الآن

فيسأل عنه ؟ انه يحس بحنين الى رؤيته فعلا ، ولكنه جاء لمهمة تشغل عليه فكره .. فليرجىء زيارة حامد حتى ينتهى من مقابلة أحمد أفندى عاصم ويخطب اليه ملكة ، ويطمئن الى أنه حصـل على المونة التى يشـيد بهـا مستقبله ..

وعندما اقترب من فيلا أحمد أفندى عاصم فى نهاية الشارع الأبيض لاحظ أن شيئا من البلى قد تطرق اليها ، فلون جدرانها قد استحال باهتا .. وتساقطت بعض الاحجار من سور الحديقة .. ونسجت العناكب خيوطها على بعض الزينات الخارجية .. ولكن .. أى شىء لم يتطرق اليه البلى.. ألم تبهت علاقة الود والصداقة التى كانت تربط أسرته وأسرة احمدافندى عاصم .. ألم تنسج العناكب خيوطها على الحب الذى كان يربطه بملكة ؟

ودلف من باب الحديقة ... وصعد الدرجات الرخامية التى تصل الى باب المبنى .. ثم قرع الباب وانتظر ... وأحس بنبضات قلبه تتتابع فى خفقها .. وشعر بأنفاسه تلهث فى صدره .. كان مضطربا قلقا .. ترى كيف يستقبله أحمد أفندى عاصم .. ؟ هل سيتذكره فورا ؟ ترى كيف تستقبله ملكة ؟ أما زالت تتذكر حبهما القديم .. وكيف سيقـع نبأ خطبتها من نفسها ومن نفس أمها .. ؟ وكيف .. وكيف .. ثم فتح الباب .. ووقف عباس دهشا ألجمته المفاجأة .. كان أمامه آخر من يتوقع رؤيته الآن .. حامد .. بلحمه ودمه .. وفى رداء منزلى من الحرير الأنيق .. !

وأفاق من الدهشة على حامد وهو يعانقه هاتفا :

ـ أهلا عبس .. !

فتمتم فى ذهول :

ـ حامد .. ؟ !

ثم تدارك نفسه فبادل حامد العناق وقال :

ـ ازيك ياحامد •• !

ـ ازيك انت •• ؟ •• فينك وفين أيامك ؟ •• تعال •• اتفضل ••

ثم قاده الى حجرة استقبال أثاثها جديد غير ما ألف أن يراه منـــذ سبع سنوات أيام أن كان يأتى مع أمه وأبيـه الى هنا • • فجلس حائرا مضطربا يتساءل ماذا يفعل حامد هنا •• ؟ •• وفى ثوب منزلى •• ؟ أتراه سبقه وتزوج ملكة •• ؟ ولكن هذا مستحيل •• مستحيل •• كيف يرضى أحمد أفندى عاصم بهذا الزواج غير المتكافىء •• ؟ فحامد عامل باليومية فى السكة الحديد وأحمد أفندى عاصم هو الذى توسط بنفســه لتعيينه •• وهو لايملك عقارا ولا أصلا عريقا يرضيان عنجهية أحمد أفندى عاصم التركية •• ؟ أتراه حقق هذا الزواج بأسلوب ملتو •• فترك أحمد افندى عاصم جانبا واستغل سذاجة ملــكة وطهرها •• انه لايعرف فى حامد هذا اللون من الذئاب ، فضلا عن أنه ليس بالجميل الفاتن ولا باللبق الذكى الذى يمكن أن يملك على ملكة قلبها •• فكيف حدث هذا •• ؟

كانت هذه الأسئلة تعصف بذهنه فلا يجد لها جوابا •• وظل يحدق فى حامد ببلاهة ولم يفهم حرفا من الحديث الطويل الذى انطلق فيه ، الى أن سمعه يسأله :

ـ انت خلصت الدراسة ولا لسه ••؟

فقال وهو ينتزع من فمه كلمات متعثرة :

ـ خلصت هندسة السنة دى بس ••

ـ لأ •• يبقى أنا أشطر منك بقى •• طول عمرى أشطر منـك ياواد •• أنا خلصت الحقوق السنة اللى فاتت ••

ـ الحقوق •• ؟! •• انت مش كنت فى السكة ••

فقاطعه حامد :

ـ أيوه يا أخى .. ذاكرت وأنا بأشتغل فى السكة الحديد .. انت نسيت والا ايه ؟ .. أنا أخذت توجيهى بعد انتم ما سافرتم بسنة واحدة ..

ولم ينصت عباس لبقية الحديث ، فقد تكشف له كل شيء .. ان أحمد أفندى عاصم زوج ابنته ملكة لحامد المحامى .. لا لحامد كاتب اليومية الذى توسط بنفسه لتعيينه فى السكة الحديد بخمسة عشر قرشا فى اليوم .. وبدأت دهشته تزول بالتدريج .. وعلا الابتسام وجهه فى بطء وأخذ يستعيد نفسه المشتتة شيئا فشيئا .. اذا كان حامد قد تزوج ملكة .. فليبحث اذن عن غيرها لنفسه .. فملكة لاتعنى بالنسبة اليه شيئا أكثر من مجرد « المونة » التى يشيد بها مستقبله .. وأنواع المونة كثيرة ملء البصر وملء اليد ، فليستبدل بها غيرها دون تردد .. ! .. ولكنه أحس بشيء من الغيظ لأن ملكة تزوجت غيره .. ربما كان هذا الغيظ ناجما عن الحب القديم الذى ظل ينفخ فى رماده خلال الأيام الماضية حتى رد اليه بعض الوهج .. ولكنه على أى حال لم يحاول بعث الدفء فى هذا الحب طلبا للحب نفسه .. كل مافى الأمر أنه أراد أن يضفى مظهرا عاطفيا على مشروع الزواج المادى الذى صممه تصميما منطقيا .. كان يريد أن يخدع نفسه .. وهو الآن ليس فى حاجة الى هذا الخداع .. نعم .. انه لايحب ملكة .. لايحبها على الاطلاق .. أهو صبى غض حتى يحب ..؟ واذا كانت قد تزوجت من حامد .. فليهنأ بها ولتهنأ به .. وحامد ـ مهما يكن ـ شاب طيب الخلق رضى النفس .. مكافح عصامى ..

وانبسطت أسارير وجهه تماما .. والتمع فى عينيه بريق ود صاف .. وأحس بقلبه يتفتح لحامد .. وانصرف الى حديثه ينهل منه ، فقد أوحشه حامد وجلسته مع حامد .. وأحاديثه الصاخبة مع حامد .. فانقضت نصف

ساعة أحس بعدها بأن الوقت قد أزف لينصرف .. ولكنه رأى أن الوفاء يقضى عليه بأن يسلم على أحمد أفندى عاصم ، وأن ينقل سلام أمه الى نازج هانم .. فسأل حامد :

ـ أمال فين أحمد أفندى عاصم ؟

ـ أحمد أفندى .. ؟ ماتعرفش والا ايه ..؟

ـ خير .. ؟

ـ ده مات ..

ـ مات .. ؟!

ـ بقى له سنتين ..

فأطرق عباس الى الأرض .. لقد أحس بحزن حقيقى لموت هـذا الرجل الذى كان صديقا لوالده والذى كان يعامله كابنه تمـاما لو كان له ابن .. وأدهشه أن يحس بكل هذا الحزن .. فقد كان من امانيه الخفيـة ـ فى التصميم الذى انتهى اليه فى بناء مستقبله ـ أن يموت أحمد أفندى عاصم مباشرة بعد أن يتم زواجه من ملكة .. فهذا أسرع فى تحقيـق هدفه من الزواج بها .. ورغم ان الأمر كان أمنية أشبه بالخاطرة التى تمر سريعا بالبال ثم تختفى ، فانه كان أحيـانا يقف عنـدها يتأملها .. فيجدها أمنية لها حظ كبير من الامكان ، فأحمد أفندى عاصم أكبر سنا من والده ووالده مات من زمن .. فضلاعن أن أحمد أفندى عاصم لم يكن ـفيما يبـدوـ ممن يحافظون على صحتهم فى شبابهم .. فليس ثمـة مبرر منطقى لأن يعمر طويلا .. بل ان المنـطق يقضى بأن يمـوت من سنوات .. ولو لم يكن واثقا بأنه لم يقرأ نعيه فى الصحف لاعتقد بأنه مات قبل أن يفكر فى خطبة ملكة .... كانت اذن أمنية أقرب الى الحقيقة فى

نفسه .. ومع هذالم يشعر ازاءها بأسى أو اشفاق نحو الرجل فما باله الآن يحس بهذا الحزن الحقيقى عندما سمع ـ يقينا ـ بنبأموته ..؟ أيرد الأمرالى أنه لن يستفيد شخصيا من موته مادام لم يتزوج ملكة .. وهاله أن يكون الأمر كذلك ، فمعنى هذا أنه كان سيفرح بموت الرجل لو كان سيشارك ابنته ميراثها منه .. أهو قد وصل الى هذا القدر من الخســة حقا .. ان الفرق بينه حينئذ وبين ذلك الذى يقتل للسرقة فرق ضئيل..هوالفرق بين النية وبين التنفيذ .. بل ان القاتل أفضل منه فى هذه الحالة .. لانه يجد فى نفسه القدرة على تحقيق أمانيه بينما يكتفى هو بمجرد التمنى . كلا .. انه ليس شريرا الى هذاالحد .. والامر لايعدو أن يكون انسياقا مع حلم من أحلام اليقظة ثقيل أشبه بالكابوس . ولاشك أنه كان سيحزن لموت أحمد افندى عاصم لو كان تزوج ملكة نفس الحزن الذى يستشعره الان.

ومد يده الى حامد يربت بها كتفه ، وقال فى رقة :

ـ البقية فى حياتك ياحامد .

ـ تعيش ياعباس .. كان راجل طيب .

ـ فعلا كان راجل طيب .. الله يرحمه .

ـ أنا ما أنساش فضله على .. انت فاكر طبعا اللى عمله علشانا لما أبويا عيى ..؟!

ـ الله يرحمه كان مايتأخرش عن خدمة حد .

ـ أنا بالذات .. جميله ماأقدرش أنساه .. هو اللى ادالى فرصة أكمل تعليمى .

ونهض عباس واقفا وقال :

ـ أستأذن أنا بقى .

ـ ياراجل خليك •• أنا ماشفتكش من سبع سنين •

ـ علشان ألحق القطر •• بس بلغ تعزيتى للست بتاعتك •

ـ الست بتاعتى ؟ •• فى مين ؟

ـ فى احمد أفندى عاصم •

ـ اشمعنى يعنى ؟

ـ مش أبوها ياأخى •

ـ أحمد أفندى عاصم يبقى أبو الست بتاعتى ••؟ انت جايب الكلام ده منين ؟

ـ الله •• مش انت اتجوزت ملكة ؟

ـ أنا •• !؟ مين اللى قال لك كده ؟

ـ يعنى انت مش متجوز ملكة ؟

ـ لأ طبعا ••

ـ أمال انت هنا ليه ؟ •• مش ده بيتهم ؟

ـ آه •• الحكاية جت من هنا بقى •• لأياأخى ده كان بيتهم وباعوه وأنا ساكن هنا دلوقت ••كأنك مش جاى لى أنا ؟

ولم يجب عباس على هذا السؤال ، بل ألقى بنفسه الى مقعده مرة ثانية وأخذ يحدق فى حامد ذاهلا ••انالأحداث تتتابع عليه منذ دقجرس الفيلا من نصف ساعة • وتتابعها يمضى سريعا مذهلا يوشك أن يفقده زمام السيطرة عليه •• والتصميم الذى وضعه لمستقبله يتأرجح فى كف جنى ساحر يطوحه يمينا ويسارا كريشة فى مهب ريح عاصفة •• وان كانيبدو

الآن انه عاد يقيمه بعد أن حطمه .. فأحمد أفندى عاصم مات .. وورثته ملكة .. ولم يتزوجها حامد ، لقد أصبحت المونة من صنف ممتاز .. فلن يضطر الى أن يطلب من أبيها مساعدته بعد أن أصبحت الثروة ثروتها هى ، وثروتها ستكون ثروته يتصرف فيها كيف يشاء .. عليه اذن أن يعود الى الدعائم الأولى لتصميمه فيتزوج ملكة .. هذا اذا لم تكن قد تزوجت من غير حامد .. فسأله :

ـ وملكة اتجوزت والا لسه ؟

ـ والله .. كان واحد جه خطبها قبل أبوهامايعيا .. وبعدين طار لما الراجل مات .

ـ طار .. ؟ ليه ؟

ـ يظهر انه كان باصص للقرشين اللى عنـــد أبوها .. ولما لقى ان ماحيلتهاش حاجة ...

فقاطعه حامد :

ـ ماحيلتهاش حاجة ! ازاى ؟ مش ورثت عن أبوها ؟

ـ ورثت ايه المسكينة .. ورثت الهم والفقر .

ـ ازاى يا أخى ؟.. دا كان راجل مبسوط .

ـ كان .. قبل مايموت الله يرحمه كنس كل حاجة حتى الفيلا دى باعها وصرف ثمنها على الحكما والأدوية .

ـ باعها ؟! .. طيب والأرض ؟

ـ كله .. كله اتكنس ياعبـاس .. الله يرحمه ماخلاش حاجـــة أبدا ..

وأحس عباس بأن الجنى الساحر الذى كان يعبث به وبمشروعاته قد تحول الى شيطان مريد ، وتلك الانباء التى تتقاذفه والتى لم تترك له فرصة يلتقط فيها أنفاسه اللاهثة منذ دق جرس الفيلا قد آن لهـا أن تلقى به الى هاوية يستقر فيها حقا ، ولكن مع حطام مشروعه ، فكل شيء قد انتهى الآن الى دمار شامل •• كل مارسم من تصميم لمستقبله قد أزالتـه كف الجنى الساحر بممحاة قاسية ، فملكة لم تعد تصلح مونة لتنفيذ هذا التصميم •• الا اذا أراد أن يشيد مستقبله على أساس من الرمال الواهنة •••وهل يريد ؟! أهو من البلاهة الى هذا الحد الذى يجعله يورط نفسه هذه الورطة التى لامخرج له منها اذا وقع فيها •• أهو من الضعف الى الحد الذى يجعـله يضع مستقبله فى يد القدر •• هذا الجنى الساحر •• أو الشـيطان المريد الذى لايعرف رحمة بأحلام الناس وآمالهم •• لابغير شك •• فليستبعد ملكة استبعادا نهائيا من تصميم مستقبله •• وليضعها فى موضعها الأول الذى لايكلفه شيئا الا مجرد احساس بالأسى لمصيرها •• موضع ابنـة الجيران وصديقة الطفولة التى لاترتبط به الا فى ماضيه •

وكان حامد يتحدث عندما أفاق من شروده •• ويبدو أنه كان لايزال يتحدث عن ملكة وأمها فقد التقطت أذنه هذه العبارة :

ـ لما ضاق بيهم الحال عزلوا فى الشرابية •• كنت بأروح أزورهم والمرحوم عيان •• ودلوقت والدتى هى اللى بتودهم •• بقت حالتهم كرب خالص •• والدتى كانت عندهم الجمعة اللى فاتت •• لقت ملكة لابسـه فستان كمامه مرقعة •• والجزمة كعبها ملووح •• ونازج هانم فى جلابية سودة دايبة وجربانة •• تصور ؟ ••

وتصور عباس •• وجعله تصوره يحس بذعر خفى •• فقد تصور ملكة وأمها لاكما صورهما له حامد ولكن كما تعى ذاكرته صورتهما التى رآها آخر مرة منذ سبع سنوات •• نازج هانم فى معطفها الاسود الثمين

واليشمك الأبيض يغطى وجهها النبيل .. وملكة فى صباها الغض ..
وأناقتها الفاتنة .. وشعرها الاصفر الوهاج ينسدل على ظهرها حتىوسطها
ويكلل وجهها الناصع بياضه كتاج من ذهب فوق رأس فينوس .. هو لم
ير فينوس حين ذاك .. ولكنه كان واثقا من أنه لو رآها لرأى لها رأس
ملكة ووجه ملكة .. أيقول انها فى ثوب بال مرقع ؟ وأحس مرة أخرى
بالذعر الخفى .. كان خائفا من تخيل صورتها فى الثياب المرقعة البالية .

وكان حامد لايزال ماضيا فى حديثه :

ـ نازج هانم اشتغلت خياطة .. انما حالها واقف قوى .. ووالدتى
بتحاول تجيب لها زباين لكن بيهربوا .. يمكن ماحدش خيط عندها
الشهرين اللى فاتوا الا والدتى .. ساعات حتى باخليها تشترى هدوم مش
محتاجة لها .. بس علشان تنفعها .. نفسى أساعدهم بطريقة ماتجرحش
احساسهم ..

ووجد عباس نفسه يسأل سؤالا مفاجئا .. مفاجئا حتى له هو ..
فلم يفكر فيه من قبل أن ينطق به لسانه :

ـ اذا كنت عاوز تساعدهم .. ليه ماتجوزتش ملكة ؟

ـ ياريت ياعباس ياأخويا .. لو كنت أعرف أن حالتهم حتبقى بالشكل
ده كنت قعدت من غير جواز لحد ماأتجوزتها .. انما انا اتجوزت من زمان
دا أنا مخلف ثلاثة ياراجل .. ومخلف أول ولد قبل أحمد أفندى عاصم
ما يعيا ..

ـ خسارة .. دى كانت تبقى أصلح زوجة لك .

ـ مؤكد .. انما بقى الحظ .. القدر ياعباس .

نعم .. القدر .. هذا الجنى الساحر الذى يسوق المرء الى حيث لايعلم

لينتهى به الى مصير مجهول يكون كالقيد المحكم ليس له منه مهرب ...
وقال حامد بغتة :

ـ عباس .. انت اتجوزت ؟

ـ لـ .. لـ .. لسه ..

ـ طيب ماتتجوزها يا أخى ! ..

وفزع عباس .. يتزوجها ؟.. أيضم فقرا الى فقر ؟ .. أيقيم مستقبلا على دعامة من رمل ؟ .. انه يريد مونة متينة يشيد بها مستقبله .. فلينصرف اذن وليعد الى الاسكندرية بأول قطار .. وليقطع صلته بهذا الموضوع .

وهب واقفا ، وصافح حامد .. فقال هذا وهو يودعه عند الباب :

ـ اذا كنت تحب تفوت عليهم .. فهم ساكنين فى الشرابية شارع صفوت نمرة ٢٥ .. فى البدرون .

فكتب عباس هذا العنوان محرجا أمام حامد ولـكنه كان معتزما الا يذهب .. يذهب ؟! .. أينقصه هم جديد ؟! ..

***

نظر عباس الى الساعة التى فى رسغه فألفاها النصف بعد السادسة ماللزمن يمر بطيئا كئيبا .. مازالت أمامه ساعة ونصف حتى موعد القطار وهذا الصداع قد تحول الى مصنع من مصانع الصلب فى رأسه .. طرقات ودقات .. وأبخرة ساخنة تغلف عقله .. وصفق يستدعى الجرسون :

ـ كمان اسبرينه وفنجال قهوة من فضلك .

وابتلع قرص الاسبرين .. وبدأ يرشف القهوة فى عصبية وآخذ يتلفت حوله الى الموائد المبعثرة فى أنحاء المقهى .. كان يريد أن يشغل نفسه بشىء يصرفه عن هذا الصداع ، ويسرى عنه هذا الهم والضيق .. فرأى بائع اليانصيب يقف عند مائدة قريبة ، وقد أخذ شابان يعبثان بأوراقه

ثم اشترى واحد منهما ورقة وصرف البائع ، وسمعه عباس يقول لزميله :

ـ تعرف لو كسبت الميتين أعمل بيهم ايه ؟

ـ ايه ؟ ..

ـ اشترى بيهم ورقة يانصيب .

فضحك زميله وقال :

ـ أنا أعرف واحد ضربت معاه الالف .. تعرف عمل بيهم ايه ؟

ولم يسمع عباس بقية الحديث ، فقد استوقفته عبارة الالف جنيه.. فهذا انسان كسبها .. فلماذا لايكسبها هو ؟ ان فى جيبه ورقة قديمة لم يكشف عليها بعد ،فلو كسبت ؟ ان مشكلته تحل .. وتحل فى سهولة لم يكن يتوقعها .. فهو لايريد أكثر من هذا المبلغ ليبدأ حياته . لو أن احمد افندى عاصم لم يمت .. أو لو انه لم يبدد ثروته قبل موته .. ولكن ماله وما لأحمد أفندى عاصم الآن ؟ .. ان هذا شىء قد انتهى منه..انه يريد أن يكشف عن الورقة التى معه .. فاليانصيب قادر على حل مشكلته .. بل على حل كل المشكلات التى تواجه أى فرد .. ملكة وأمها مثلا .. لو كسبتا ورقة يانصيب لطلقتا هذا الفقر المر الذى ترسفان فيه .. لاشك فى أن مفتاح السعادة هو ورقة اليانصيب .

وأخرج الورقة من جيبه ومضى يتفحصها .. هـذا الرقم يلوح عليه أنه رقم رابح .. انه يعلم أن رقم سبعة رقم سعيد وفى ورقته ثلاث سبعات .. ولو جمع أرقام الورقة لكان مجموعها سبعة .

وبدأ يجمع .. ثم سمع ضجة وصخبا خارج المقهى ، فنظر من النافذة المجاورة له .. ورأى موكب عرس .. موسيقى نحاسية .. خلفها رتل من السيارات .. وفى مقدمتها سيارة مزينة بالورد تنبعث منها الزغاريد ..ولمح خلف زجاج نافذتها فتاة فى ثوب زفاف أبيض.. وكانت

هى أيضا بيضاء ناصعة البياض مثل ملـكة .. انها تطرق الى الارض فى خجل .. مثلما كانت تطرق ملكة وهو يضغط يدها منذ سبع سنوات .

كان مقدرا لملكة أن تكون فى مثل هذا الثوب الابيض وان تطرق الى الارض فى خجل وهو جالس الى جانبها فى بدلة الزفاف السوداء .. لو لم يمت أبوها ويسلمها الى الفقر .

ألف جنيه فقط .. ألف جنيه فيجلس الى جانب ملكة فى ثوبهـــا الأبيض .. لو كان عندها ألف جنيه ..!.. أو لو كانت عنده هو ! ..

ورأى ورقة اليانصيب لاتزال فى يده .. وتذكر أنه كان يجمـــع أرقامها .. لو ربحت الورقة الألف جنيه فليس ثمة مايمنـع أن يتزوج ملكة .. ان كل مشكلته هى المال .. فاذا وجده سواء عندها أو عنـــده فلماذا لايتزوجها ؟ .. انها فتاة ممتازة حقا .. كم كانت أيامه معها جميلة حقا .. لقد عاش فى جنة حبها الصبيانى أربع سنوات .. وفى الليلة التى تقرر أن يسافر فى صباحها مع أسرته الى الاسكندرية حيث نقل أبوه .. جاءت ملكة وأمها وأبوها لتوديعهم ، وسهروا حتى انتصـــاف الليـــل ، وعندها هموا بالانصراف سبقتهم ملكة الى الباب وتبعها هو .. وهناك .. تشابكت كفاهما فى وداع صامت .. ثم سألته فى صوت مرتجف :

ـ حتفتكرنى ياعباس ؟

فضغط أصابعها بين أصابعه فى ألم .. ولم يستطع أن ينطق الا بعد جهد :

ـ لازم أرجع تانى .. لازم .. ضرورى أرجع لك تانى .

لقد كان هذا وعدا ألقاه وهو يعتزم تحقيقه .. ولكن السنين جعلت الفتور يدب الى عزيمته وضباب النسيان يغلف قلبه .. فلم يتذكرهالاالآن . ترى ما الذى جعله يتذكر هذا الوعد ؟ لقد اكتسى وجهها أسى عارما وهـو

يودعها منذ سبع سنوات .. ولكن هذا الوعد الذى ألقاه جعل أشعة من الفرح تتألق فى عينيها ، وكم يكون فرحهاالآناذاعاداليها ليحقق وعده!.. ولكنه لن يعود ، لن يعود الا ...

ـ يانصيب .. خذ الورقة دى يابيه يمكن تكسب .

وأفاق عباس من تأمـــلاته .. فرأى أمامه يدا تمتـــد اليه بأوراق اليانصيب .. كانت يدا بيضاء ناصعة فيها سمنة .. وفيها طراوة لم يعهدها فى أيدى بائعات اليانصيب .. فارتفع ببصره رويدا رويدا .. من اليد الى الساعد الذى يغلفه كم أسود من القطيفة التى حالَ لونها .. ثم الى الجسم فاذا بها سيدة سمينة ترتدى معطفا اسود أجرب .. يدلّ نسيجه على أنه كان فاخرا فى يوم من الايام .. وتسدل على وجهها قناعا يخفى ملامحها .

وأحس بأنه رأى هذه اليد من قبل ، ورأى هـــذا الجسم الابيض السمين من قبل .. ولكن .. أين ؟

وأحس بقلبه يخفق .. ويخفق حتى كاد يسمع دقاته .. ثم تكلمت السيدة :

ـ يابيه .. خـــد الورقة دى .. ساعدنى يابيه .. أنا باجرى على ولايا ! ..

واشتد اضطراب عباس .. وكان فى منظره شىء جعل البائعـــة تضغط على هذه النغمة .. فمضت تقول :

ـ أنا واحدة من عيلة .. وكنت مبسوطة .. لكن جوزى مات .. وعندى ولايا باصرف عليهم .. ساعدنى ربنا يساعدك .. أنا سنى زى سن والدتك .

وهم عباس بأن يقفز اليها .. أتراها ؟ ..

ورفعت البائعة القناع عن وجهها ، وأشارت الى أخاديد الزمن على

وجنتيها ولمست شعرها الذى استحال الى قطن مندوف .. لا .. لم تكن هى نازج هانم كما حسب .. وشعر بأن أعصابه انهارت وبأن عقله قد طغت عليه الأبخرة الساخنة حتى اختلطت عليه الأمور.. والا ،كيف ظن - ولو للحظة قصيرة - ان هذه البائعة هى نازج هانم ؟ .. ان نازج هانم تنطق العربية فى لكنة تركية واضحة وهذه البائعة لهجتها قاهرية نقية .. أنسى هذه الحقيقة التى كانت واضحة فى ذهنه منذ لحظات ؟ .. لاشك أن أعصابه انهارت . ومد يده فى شرود الى البائعة وتناول الكشف .. وجرى ببصره باحثا عن رقم الورقة التى فى يده بين الأرقام الرابحة ثم هشم الورقة بين أصابعه فى صمت .. وألقى الى المرأة بقرش،وماكادت تنصرف حتى انكفأ على المنضدة .. كان يريد أن يبكى،لعل الدموع ترحمه، وتخفف هذا الصداع الذى يدمر رأسه . نعم .. ان البائعة ليست نازج هانم .. ولكن كان من الممكن أن تكون هى .. من الممكن أن تبيع نازج هانم اليانصيب ومن الممكن أن تعمل ملكة خادمة .. وغسالة .. بل من الممكن أن تتسولا .. فالزمن لايعرف أصلا عريقا ولا غير عريق ..وفى استطاعته هو أن يقيهما هذا المصير اذاتزوج ملكة .. انهما جزء من ماضيه. بل لعلهما أكثر أجزاء هذا الماضى اشراقا وحنانا .. أربع سنوات من الحب الصافى البرىء منحتها له ملكة ، كانت تحبه وهى غنية تفتن شباب الحى الناضج بجمالها ، ولم يكن هو الا صبيا صغيرا لم تكتمل رجولته ولم يتضح مستقبله ، ورغم هذا قدمت له قلبها دون ثمن .. لسبب بسيط جدا هو أنه لم يكن يملك الثمن .. فماذا قدم له غيرها ممن عرفهن فى الاسكندرية عندما كان يملك الثمن فعلا ؟ .. لاشىء كن يطمعن فى الثمن بلا مقابل.. بل وماذا ينتظر أن تمنحه أى فتاة يتزوجها .. انها مهما بذلت له من حب فلن تبذل مايعدل الحب الذى منحته اياه ملكة فى صباه .. فماذا ستقدم له غير ذلك ؟ الجنيهات الألف ؟ .. وهل تساوى الجنيهات الألف كل هذا الماضى الجميل .. باشراقه وطهره وحنانه ؟! ..

وعندما رفع رأسه كان يشعر بشيء جديد لم يألفه من قبل ..

كان حامد كاتبا باليومية ، يعول أباه المريض وأمه وأخوته ، ثم أصبح محاميا .. وكان هو سمسار مساكن يطوف على البيوت الخاليـة ، بل كان بائع « روبابيكيا » فى يوم ما .. وكل هذا قد انتهى وأصبح الآن مهندسا .. فهل يعجزه أن يحصل على رأس المال الذى يريده ليبدأ حيـاته التى يريدها ؟! ..

أأقفلت الابواب فى وجهه الا باب الزواج من ثرية .. وباب اليانصيب ؟! ..

وابتسم فى سخرية وهو يلقى بورقة اليانصيب المهشمة الى الأرض .. ثم نادى الجرسون ليسأله :

***

ـ اللى عاوز يروح الشرابية يركب ايه من هنا ؟

ولما تنسم الهواء النقى خارج المقهى لاحظ أن الصداع قد زال .. وحل محله صفو وارتياح .. وان الضباب الذى كان يغلف عقـله قد تبدد ليفسح الطريق أمام أضواء جديدة ..

متاعب خاصة

سأقص بعض متاعبى الخاصة .. أليس من حق الكاتب على القراء أن يقرأوا له ولو مرة واحدة عن متاعبه الخاصة ؟

بدأت هذه المتاعب في ميدان العتبة فى الثانية عشرة من مساء احدى ليالى الاسبوع الماضى .. كانت ليلة جميلة .. أنفقتها منذ الغروب مع صديق لى من الباحثين عن متاعب الناس ليخطوها على الورق قصصا .. وقد لهونا فى هذه الليلة ماشاء لنا اللهو .. واستمتعنا بكل دقيقة مرت بنا وبكل قرش كان في جيوبنا ..وهكذا .. عندما دقت الساعة الكبيرة فى الميدان لتعلن انتصاف الليل .. لم يكن فى جيبى ولا فى جيب الصديق الا قرشان ، قرشان فقط .. مهما أجرينا عليهما من العمليات الحسابية .. فلن يزيد الناتج عن عشرة مليمات لكل منا .. ولم نكن نحتاج فى الواقع الى أكثر من ذلك فى ختام ليلتنا .. فلم يكن أمامنا الا العودة لمنزلنا . . ومنزل الصديق فى شبرا ومنزلى فى مصر القديمة .. وما على كل منا الا أن يركب الترام .. ويدفع المليمات العشرة للكمسارى .. ثم يجلس هادئا مستريحا .. يدخن سيجارة ـ وكان معنا الكثير منها ـ حتى يصل الى منزله .

كان الجو رائعا .. سماء صافية .. ونجوم براقة .. ونسيم رقيق لايقوى على العبث بجلابيب لابسى الجلابيب العائدين الى بيوتهم بعد انتصاف الليل .. وافترقنا .. أنا والصديق .. ولا أدرى ماحدث له بعد ذلك .. أما انا .. فقد وقفت أنتظر الترام .. وانقضت عشر دقائق ثم عشرون .. ثم ثلاثون .. ودقت الساعة معلنة انتصاف الواحدة .. فلم

يخالجنى خوف أو وجل .. فالمواصلات كما سمعت مستمرة حتى الساعة الثالثة صباحا .. وكانت محطة الترام مقفرة .. الا منى .. ومن عامل يرتدى ثيابا ملطخة بالزيت .. يروح ويجيء على الرصيف فى قلق واضطراب ، ومع أن الميدان فيه ساعتان كبيرتان .. ومع ان احداهما دقت فى صوت مجلجل مدو .. الا أن زميل على الرصيف اقترب منى بعد دقائق ليسألنى فى صوت مرتجف :

ـ الساعة كام من فضلك ؟

ـ اتناشر ونص وخمسة .

ـ أمال الترماى اتأخر ليه ؟ . .

ولما لم أكن مسئولا عن تأخير الترام .. ولم يكن ثمة مايدعو الىاجابة جافة .. فقد قلت :

ـ زمانه جاى .. ! .. احنا فى آخر الليل ..

فعاد زميلى يذرع الرصيف فى قلق .

وأخيرا .. ظهر الترام فركبت ، وركب العامل .. زميلى على الرصيف .. وجلسنا متقابلين .. وسار الترام فى طريقه فأخرجت سيجارة من علبتى الفاخرة ووضعتها فى فمى .. ومددت يدى أبحث فى جيبى حتى عثرت على الثقاب .. وقبل أن أشعل السيجارة سمعت صوتا رقيقا مهذبا يقول :

ـ ورق ! ..

كان (الكمسارى) .. فأخرجت القرش الوحيد من جيبى وناولته له .. فنظر فيه قليلا ..ثم نظر الى طويلا.. وعندئذ أحسست بقلبىيسقط فى ساقى ..

ـ أيه ؟ القرش وحش ؟

ـ لأ ..

فحمدت الله فى سرى .. وقلت فى كبرياء :

ـ أمال ايه .. ؟ .. بتبص لى قوى علشان ايه ؟ ..

ـ أصل التذكرة بقرشين ! ..

ـ قرشين .. ؟ .. ليه ؟ ..

ـ بعد الساعة اتناشر ..

فمددت يدى الى جيبى فى كبرياء .. ولكنها عادت فارغة .وتضاءلت كبريائى جدا .. وأحسست بالعرق يندى جبهتى .. ولكننى رجل عملى وينبغى أن أتصرف .. فقلت للكمسارى ـ ولم يكن فى صوتى كبرياء اطلاقا:

ـ يظهر أن مافيش غير القرش ده معايا ! ..

وكان الكمسارى ينظر الى فى أدب واشفاق ، والعامل الذى يجلس أمامى ينظر الى فى جزع واضطراب .. ثم قال الكمسارى وهو يناولنى القرش :

ـ تقدر حضرتك تركب الأوتوبيس ..

فقال العامل فى صوت متحشرج :

ـ بكام ..

ـ بقرش صاغ .. لحد الساعة الواحدة ..

فأخذت القرش فى خجل .. وقمت عن مقعدى .. ولم أكن قد

أشعلت السيجارة بعد •• وكان العامل قد سبقني الى السلم •• وقال الكمساري :

ـ الأتوبيس قام وراانا من العتبة •• تقدروا تاخدوه على طول ••

وغادرت الترام في المحطة التالية •• والكمساري يسير في ركابي حتى السلم والعامل يسبقني الى النزول •• ثم سار الترام في طريقه بعد أن خلفنا على المحطة •• وقبل أن نتجه الى محطة الاتوبيس •• رأيناه يقبل مسرعا كالعاصفة مضيئا كاللؤلؤة •• ثم يمر بنا قبل أن ننقل أقدامنا خطوة واحدة •• فقال العامل :

ـ آدي الأوتوبيس مشي •• أما مقلب ؟! •• أنا مفيش معاي غير قرش واحد زي حالاتك ••

وأنا رجل عملي وينبغي أن أتصرف •• فنظرت في ساعتي •• ثم قلت له :

ـ الكمساري قال الأوتوبيس لحد الساعة واحدة بقرش •• والساعة دلوقت واحدة الا ثلث •• يالله بينا نمشي تاني لحد العتبة نلحق الأوتوبيس ••

وهكذا انطلقنا ـ العامل وأنا ـ مسرعين في الطريق الى العتبة ، وكنا مضطربين •• فلم نستمتع بالجو الرائع ولا بالسماء الصافية والنجوم البراقة •• وكف النسيم الرقيق عن هبوبه •• فوصلنا الى موقف الاتوبيس ونحن نتصبب عرقا •

وسألني زميلي العامل :

ـ الساعة كام ؟ ••

ـ واحدة الا ربع ..

واتخذنا مجلسنا فى السيارة متجاورين .. فقـــد أصبحنا صديقين تجمعنا مشكلة واحدة .. وكانت السيجارة مازالت بين شفتى دون اشعال .. فأخرج صديقى الجديد علبة ثقاب ليشعل لى السيجارة فأخرجت بدورى علبتى الذهبية وناولته سيجارة .. فأخذها وهو يتطلع الى العلبة الذهبية فى عجب .. ثم قال بعد تردد :

ـ لامؤاخذة .. حضرتك باين عليك .. ماتآخذنيش يعنى .. يعنى ولا مؤاخذة غنى .. ازاى مامعاكش غير قرش صاغ ؟ ..

فابتسمت وأنا أقول :

ـ ياسيدى .. ماغنى الا الله ..

فصمت قليلا .. ثم عاد يقول :

ـ طيب .. أنا معذور .. ابنى عيان .. وحالته وحشة ، وجبت له حكيم الساعة حداشر كتب له على دوا .. ولا أجزخانة فاتحة .. جيت صرفت الدوا من الاسعاف .. ودفعت كل اللى معايا .. مافضـــلش غير القرش ده .. انما حضرتك .. حضرتك يعنى ماتآخذنيش ..

وأردت أن أشغله عن مشكلة حضرتى بمشكلة حضرته ، فأسرعت أقول :

ـ أهو انت حكايتك دى اللى مقلب .. تصـــور بقى لو ماكانش الأوتوبيس للساعة واحدة كنت عملت ايه ؟ ..

ـ حا اعمل ايه يعنى ؟ ..

ـ ابنك عيان مستنى الدوا •• وانت مش قادرتروح علشانمامعاكش غير صاغ ! ••

ـ ربنا موجود •• جعل لنا بحكمته الأوتوبيس للساعة واحـــدة بقرش صاغ ••

وعندئذ دقت الساعة الواحدة •• فقفزت كالملسوع •• كانالحديث قد شغلنى عن ملاحظة الوقت •• حتى أصبحت الساعة الواحدة تماما •• ولم يتحرك الأوتوبيس بعد •• وكان هـــذا يعنى أن ذلك الأوتوبيس بالذات موعده بعد الواحدة • أى أنه سيكون هو الآخر بقرشين بدلامن قرش •• وكان صديقى الجديد ماضيا فى حديثه •• لم ينتبه لهذهالمشكلة الجديدة •• ومضت دقيقة •• فتحركت فى مكانى بقلق •• ومضتدقيقتان فنظرت من النافذة أبحث بنظرى عن السائق والكمسارى فلم أجدهما •• وانقضت ثلاث دقائق •• فقلت لصديقى الجديد :

ـ يظهر ياحلو ان الأوتوبيس ده بيقوم بعد الساعة الواحدة ••

ـ يانهار اسود •• ! •• وبعـــدين ؟ •• ابنى ؟ •• اعمـــل ايه فيـه ؟ ••

ونظر الى ونظرت اليه •• وعنـدما التقت عينانا كنت قـــد انتهيت لقرار •• سأعطيـــه القرش الذى معى ليـــذهب الى ابنـــه بالدواء •• أما أنا ••

ولم أشـــأ أن أفكر فيما قد يحـدث لى حتى لا أتراجع عن هـــذا القرار ••

وفجأة بدأت السيارة تتحرك • وتقدم الكمســـارى الينا •• فناوله

صديقى قرشه فأعطاه تذكرة •• فحمدت الله •• وناولته قرشى••فأعطانى تذكرة •• فأخذتها فى كبرياء •• ثم قلت له من طرف أنفى :

ـ اتأخرتم ليه ؟ ••

ـ كان فيه مشكلة مع الناظر أخرتنا عشر دقائق ••

ـ وتأخروا الجمهور معاكم بالشكل ده ؟ ••

ـ ياسيدى ماتدقش ؟

ثم انصرف عنا الى غيرنا من الراكبين •• وعدت الى منزلى••وعاد صديقى العامل الى ابنه بالدواء ••

حكاية الشيخ سيد

أنا أعرف الشيخ سيد من زمان ، من خمس سنوات أو ست ،وكنت أيامها أسكن فى بدروم بيت الحاج خلاف فى حارة الامرا بالسيدة زينب، والسكن فى البدروم شيء مخيف ، يكفى اننى ـ وأنا الانسان ـ كنتأنام تحت سطح الارض بمترين ، بينما أرى بعينى مئذنة المسجد شامقةتخترق السحاب ، وكنت أصحو فى الليل مزعجا على صفير الصراصـــير ودبيب أقدام الفيران ، بينما المئذنة تتثاءب فى الفجر وتتمطى شـامخة على زقزقة العصافير ، على أننى لم آسف كثيرا حينئذ لكرامة الانسان ، فقد كنتأمر بفترة من العمر لايتنبه المرء فيها الى أمثال هذه المشكلات ، فقد كنت فنانا، أو بتعبير أكثر دقة ، كنت أعد نفسىلأكون راهبامنرهبان الفن ، ولابأس عند راهب الفن من أن يفكر فى مشكلات آلهة الأولمب وهـو يعيش فى تلال زينهم ، وكنت أنسى ـ أو أتناسى ـ شعر رأسى حتى ينمـو ويغطى قفاى ، بينما لم أنس مرة أن أميل الطربوش حتى تلمس أطرافالزرأعلى أذنى وأثبت البيون الاسود فى ياقة القميص التى تحجرت من النشـا . ولما كان التفكير فى مشكلات آلهة الأولمب ليس مصدرا للرزق ، وكانت الآلهةالمذكورة لاتهتم باطعامالمشتغلين بمشكلاتها ، فقد كنت أنفقعلىنفسى من قرشين ورثتهما عن المرحـــوم أبى ، ومن الطبيعى جدا أن يذوب القرشان فى محـــراب الفن ، ومن الطبيعى جـــدا أيضـــا أن أحس بانزعاج شديد لذوبان القرشين ، ثم من الطبيعى جدا مرة ثالثة أن يقلقل هذا الانزعاج ايمانى بآلهة الأولمب . فبدأت أتشكك فى جدوى التفكير فى مشكلاتهم .

وذات صباح أحصيت ماتبقى من القرشين ، وكان فى نتيجة هـــذا

الاحصاء نهاية لايمانى بآلهة الأولمب ، فكفرت بهم وبمشكلاتهم وبدأت أومن بمشكلات تلال زينهم ، وفى هذا الصباح بالذات رأيت الشيخ سيد للمرة الأولى .

كنت أتسلق سلالم البدروم لأخرج الى سطح الأرض ، عندما سمعت صوتا أجش كريها يرتل آيات من القرآن الكريم فى الحارة ، ومع اننى سمعت كثيراً من المتسولين الذين يستغلون القرآن فى اجتذاب قلوب المؤمنين لينتزعوا منهم بعض النقود ، وبالرغم من أن أصواتهم ليست أقل قبحا ، وترتيلهم ليس أخف نشوزا من هذا الصوت الذى سمعته ، الا أننى توقفت عند باب البيت أرقب صاحب هذا الصوت فى اهتمام .

ولست أذكر الآن تماما ما أثار اهتمامى به ، أكان فيه شىء يلفت النظر .. أم ان كفرى بآلهة الأولمب ومشكلاتهم جعلنى أقف عند أول مشكلة تلقيها فى طريقى تلال زينهم ؟ .. على أننى اقتربت منه وأخذت أتفحصه ..

كان يجلس على الأرض فى ظل جدار بيت خرب عندرأس الحارة، عليه جلباب قديم ،لاشكفى أنه كان فى يوم ما أبيض اللون ، وان كان ـ وهو فوق جسده ـ لايمت للبياض بصلة ، ويتمنطق بشال أخضر باهت متآكل . وفوق هذا الجلباب يلبس شيئا ما ـ لعله أراده أن يكون جبة ـ وان كان منظرها يدل على انها كانت فى غابر الزمان معطفا لرجل سمين ، وفوق رأسه طاقية قذرةيلف عليها قطعة من القماش يحاول تضخيمهابخرق يحشوها بين طياتها حتى تبدو فى صورة العمامة . وفوق فخذيه عكازة ضخمة تكاد تصرخ بالناس ان صاحبها أعمى ، وكان شعر لحيته ورأسه مسترسلا فى صورة قذرة تبعث على التقزز .

وطالت وقفتى أمامه ، وخيل الى أنه أحس بى ـ رغمانهأعمى ـ فقد لاحظت أن شيئا من الوجوم عراه ، وان ترتيلهأصابهبعضالفتور ،فأدركت

أنه حسبنى مخبرا وخشى أن أقبض عليه بتهمة التسول ، فاقتربت منه وقلت مشجعا :

ـ أحسنت ياسيدنا !..

ثم دسست فى يده نصف فرنك كاملا جعله ينقطع عن الترتيل ليبدأ سيلا من الدعاء بأن يعمر الله بيتى ويطول عمرى ويوسع رزقى ويوقف لى أولاد الحلال . وهكذا نشأت بينى وبينه صلة من الود . فعندما عدت الى البدروم مع الشمس الغاربة وتحت أبطى عشائى من الخبز والسمك المقلى ، ألقيت بين يديه رغيفا وقطعة من السمك ، وأنا أذكر الآن تماما اننى لم أنطق حرفا واحدا وأنا أعطيه الطعام ، الا أنه عرفنى بطريقة أو بأخرى ، فقد أطلق سيل الدعاء الذى ودعنى به فى الصباح .

وفى تلك الليلة .. وعلى صفير الصراصير ودبيب أقدام الفيران .. رقدت أفكر فى هذا المتسول ، واعتزمت أن أكتب عنه رواية يتخاطفها القراء ويتصارع حولها النقاد ، وقبل أن أروح فى النوم كانت خطوط الرواية قد اتضحت أمامى ، سأجعله فى صدر شبابه (فلاشك انه كان شابا قويا) يستولى على قلب بنت واحد من الباشوات ، فتجرى وراءه ، وتحاول اغراءه بمالها وجمالها ، فيتأبى عليها لأنه زاهد منصرف عن غرور الدنيا وعرضها ، فتحاول ارهابه بجاه أبيها ، فيثور فيها ثورة الكريم الذى لايضام ، وعندما يضيق بها وبتسلط أبيها يفر منها الى الدنيا الواسعة يطلب رزقه من كرم عباد الله . وتنتحر هى يأسا منه ولوعة عليه .

وأخذت أحلم طول الليل بالناشر يتوسل الى أن أعيد طبع الرواية للمرة العاشرة ، وبحفلات التكريم تقيمها لى المحافل الأدبية ، ومخرجى السينما وهم يجرون خلفى لأبيع لهم حق اخراجها على الشاشة . وكان آخر حلم رأيته هو حجرتى فى البدروم وقد أصبحت أعلى من المئذنة ، واننى أقف فى شىء شبيه بالشرفة أطل منه على أعلى نقطة فى سطح المدينة ..

وفي الصباح فتحت عيني على الصوت الكريه الأجش يتسلل من سطح الأرض الى في فراشي بالبدروم ، فاستيقظت مبتهجا أقفز نشيطا لأرتدي ثيابي بسرعة ، ولم أنس ان العن آلهة الأولمب وأنا أخرج الى وحيي الجديد الذي ألقته تلال زينهم في طريقي . وأسرعت أولا الى مطعم الفول في ميدان السيدة فتناولت افطاري ، ثم اشتريت له رغيفا وضعت فيه بعض أقراص الطعمية ، وعدت اليه وأعطيته اياه ، وانتظرت حتى انتهى سيل الدعاء لي بعمار البيت وتوسيع الرزق .. الخ ثم أخذت أحادثه ، فقد كنت في حاجة الى بعض المعلومات عنه لأستعين بها في الرواية ، سألته عن اسمه ، فقال وفمه مكتظ بالطعام :

ـ محسوبك الشيخ سيد ! ..

وكنت أعتقد ان أهم ما أريد معرفته عنه هو قصة عينيه ، فلا شك أن وراء بصره الكفيف قصة ، وقصة مثيرة .. فربما عذبه الباشا وفقأ عينيه ! وتطلعت الى وجهه .. كانت عيناه مازالتا في محجريهما .. لم تنتزعا منه .. ولكن هذا لايغير من الأمر الواقع .. وهو أنه أعمى .. ولعماه صلة بنت الباشا .. أو ينبغي أن أوجد هذه الصلة في روايتي .. كنت على أي حال في حاجة الى معرفة شيء من ماضيه .. ربما ألقى الضوء أمامي ، وخطر لي أن أسأله مباشرة عن قصة عينيه .. ولكنني قدرت أن مثل هذا السؤال سوف يثير ذكريات أليمة في نفسه ، ذكريات ربما أغلقت دوني البـــاب الذي يقودني الى جوهره .. فرحت أحاوره وأداوره لأجره الى هـــذا الحديث الشاق ، فتكلم .. وتكلم كثيرا .. طاف بي موضـوعات شتى . حدثني عن الفرق بين الطعمية بالزيت الحلو وبينها بالزيت الأحمر .. وبين الملائكة المخلوقين من نور والشياطين المخلوقين من نار ، وحـــدثني عن الترام في شارع الخليج ومقلة اللب في السد البراني .. حدثني عن كل شيء الا عن قصته هو ، وبعد ربع ساعة وجدت أنه مازال سرا بعيدا عني

.. بعيدا كالبعد بين حضيض البدروم وسموق المئذنة ، فقررت أن آخذ الى غرضى مباشرة ، وانتهزت فرصة كف فيها عن الحديث ليلتقط أنفاسه .. فقلت له :

ـ انما ايه اللى خلى عنيك كده .

وكان قد انتهى من التقاط أنفاسه ، فأسرع يقول :

ـ أنا طلعت كده .. أوعى عليهم وهم كده .. دا شيء بقى لهزمان كنت باقول لحضرتك على مقلة اللب اللى فى السد .. واحد بيقف بعربية سجق جنبها .. الراجل ده ..

وعاد يحكى لى عن الرجل الذى تزوج احدى وعشرين امرأة دون أن ينجب أطفالا لأن ربنا لايريد ، ثم انتقل بى الى أن ارادة ربنا فوق كل شيء .. ودخل بى فى حكاية طويلة أبعدتنى تماما عن سؤالى الأساسى . لاشك أنه لايريد أن ينكأ هذه الذكريات المرة ! ..

وفى ذلك اليوم كتبت من روايتى أربعين صفحة .. تسعا وثلاثين منها عن اللقاء الأول بين بنت الباشا وبين الشيخ سيد الذى كان يعمل بستانيا فى حديقة القصر الكبير ! ..

***

وانقضت أيام وأنا أعمل فى الرواية بلا تراخ .. وكوم الأوراق يعلو أمامى يوما بعد يوم .. حتى وصلت الى لحظة فقء عينيه .. فكتبتها فى أسلوب مؤثر لو قدر للمنفلوطى أن يقرأه لاعتزل الكتابة تاركا آياها لأربابها . وعندما بدأت أصنع شعوره بعد فقد بصره .. خطر لى أن أرجع اليه فى ذلك كما تقضى أصول الواقعية ، فجمعت أوراقى وارتديت ثيابى وخرجت اليه .. ولم أعطه قرشا هذه المرة ـ فقد ارتفعت صلتى به عن هذا المستوى

كثيرا خلال الأيام الماضية ـ بل أخذت أجاذبه الحديث بعض الوقت .. حتى اقتربت من قصة عينيه مرة أخرى .. فسألته :

ـ تعرف ياشيخ سيد .. أنا متهيأ لى لو بقيت زيك أنتحر ؟ ..

ـ زيى فى ايه يعنى ؟ ..

ـ ما أشوفش ! ..

فابتسم عن أسنان سوداء قذرة وقال :

ـ أنا خدت على كده ياأستاذ خلاص .. وهى دى حاجة تزعل ؟ ..

وكدت أشد يده مهنئا على قوة روحه المعنوية .. فلا شك انه اجتاز أزمة نفسية حادة بعد فقد بصره حتى وصل الى هذه المرحلة من الرضا .. ولكننى قاومت الاندفاع الى التعبير عن الاعجاب به وقلت :

ـ طبعا دلوقت خدت على كده .. انما فى الأول كنت زعلان ! ..

ـ وأزعل ليه ؟ ..

ـ وهو فيه حد مايزعلش لما تروح عنيه ؟ ..

فطوح برأسه ذات اليمين وذات الشمال وهو يقول :

ـ الحمد لله على كل حال .. ربنا هو اللى وهب .. وربنا هو اللى أخد .. أزعل ليه ؟

وأحسست بالضيق من امعانه فى الانكار .. فقلت وأنا أريد أن أصفعه بنبرات صوتى :

ـ ازاى ده ؟ .. دا العنين أغلى حاجة عند الانسان ! ..

وربما بدا فى صوتى أثر لضيقى ، فقد كف عن تطويح رأسه •• وابتسم وهو يقول :

ـ أصل يا أستاذ •• ربنا بيخلق الحاجة علشان العبد يستفيد بيها !•• عندك انجار •• يستفيد بايديه •• ونسن السكين نسن المقص يستفيد برجليه •• انما اللى زى حالاتى •• على باب الله •• حيعمل ايه بعنيه والا بايديه والا برجليه ؟! ••

وصمت قليلا •• وازدادت ابتسامته اتساعا •• ثم عاد الى تطويح رأسه وقال فى صوت خفيض :

ـ دا يمكن الواحد لو كان من غير ايدين ولا رجلين•• كان يمكن يكسب أكثر •• والا ايه ••

***

وفى تلك الليلة استأنفت كتابة الرواية ، ولكن عقلى لم يكن خالصا لمأساة بنت الباشا ، فقد كانت عبارة الشيخ سيد الأخيرة تبرز لى بين السطور فتفسد على الانسجام وكنت أحيانا أتساءل عما اذا كان مثل هذا الرجل الذى يؤسفه أن يديه ورجليه غير مقطوعتين حتى يزداد كسبه ، يستطيع أن يثير قلب بنت الباشا حتى تحبه وتنتحر بسببه ! ••

على أن هذا لم يمنعنى من المضى فى كتابة الرواية ، ويوما بعد يوم عادت الصفحات تتراكم أمامى ، وفى نفس الوقت كانت صلتى تزداد توثقا بالشيخ سيد • ولم أكن الوحيد الذى كان يغدق عليه الاحسان ، فقد كان اهل الحارة ينافسوننى فى ذلك ، بل وألفوا الشيخ سيد مثلما ألفته • وفى الحق أنه ظهر لنا بعد العشرة خفيف الظل ذكيا لاذعا فى تعليقاته على الحياة والناس • الى أن جاء يوم بدأت فيه أتشكك فى أنه أعمى حقا • فقد لاحظت

أنه لايبدأ فى ترتيل القرآن الا اذا ظهر انسان فى أول الطريق ، وسألته عن ذلك فقال :

ـ ربنا سبحانه وتعالى جعل لنا ودان تلقط دبة النملة .. أنا قاعد قدام حضرتك .. مش شايفك وانت بينك وبينك نص متر .. انما اللى ييجى

من هناك .. من آخر الشارع باسمع دبة رجله ! ..

ولم ألاحظ أثناء حديثه أنه أشار الى آخر الشارع كمايفعل المبصرون عندما يقولون (من هناك) . على أن انخداعى فيه لم يدم طويلا ، فقد ارتبطت فى ذهنى أشياء سابقة ، منها أنه كان يعرفنى أحيانا قبل أن يسمع صوتى ، ومنها أنه نادانى أول مرة بلقب (أستاذ) دون أن يقول له أحد انني ممن يطلقون شعر قفاهم ويلبسون (البيون) على الياقة المنشاة . وأخذت أراقبه عن كثب حتى ضبطته يوما متلبسا بفحص قرش شك فى أن أحد المحسنين خدعه فيه ، فاستوثق من أن الطريق خال والنوافذ مغلقة ثم قرب القرش من عينه الى درجة شديدة . وهكذا أدركت أنه ليس بأعمى وان كانت عيناه عشواوين وبصره ضعيفاً .

وعندما كاشفته بهذا لم يمعن فى الانكار ، وانما ابتسم قائلا :

ـ أكل العيش عاوز كده ياأستاذ !.. انما أوعى تجيب سيرة لحد ! ..

وفى هذا اليوم خرجت الى ميدان السيدة ، ووقفت أتطلع الى المئذنة السامقة وقد اختلطت فى عقلى المفاهيم وترنحت القيم ، وأخذت أفكر تحيرا فى الانسان ، والكرامة ، والحضيض والقمة ، ومنذ هذه اللحظة أخذت السرعة التى أكتب بها الرواية تتناقص تدريجا . وأحسست أن كثيرا من الفقرات التى كتبتها عاجزة عن استيعاب هذه التجربة البشرية التى تقبع

على رأس الحارة ، فمزقت صفحات كاملة وبدأت أعيد كتابتها بعد أن أخذت صورة بنت الباشا تبهت أمام صورة الشيخ سيد .

وانقضت أيام طويلة ، وبدأت ألاحظ على الشيخ سيد ملاحظة جديدة ، بدت تافهة أول الأمر ، ولكنها كانت بداية طريق قادني الى مزيد من الضلال بين قيم غريبة زادت من ترنح مفاهيمي القديمة عن الانسان والكرامة والحضيض والقمة . فقد لاحظت أن الشيخ سيد لايرتل من القرآن الا آيتين اثنتين لايغيرهما أبدا ، وفي يوم زحف فيه السأم على نفسي ، خرجت الى الشيخ سيد أتفكه بمحادثته ، فسألته دون هدف محدد من وراء سؤالي :

ـ انت ياشيخ سيد ماعندكش غير الآيتين دول ؟

فابتسم كاشفا عن أسنان سوداء وقال :

ـ وهم أهلي كانوا ودوني كتاب عشان أحفظ ؟ .. دا الواد حسنين ابني كان بيحفظهم في الكتاب وهو صغير .. حفظتهم منه .. وادي احنا شغالين بيهم من زمان .. مالهم ؟ .. نعمة ..

وكانت هذه هي المرة الأولى التي أعرف فيها ان له ابنا ، وكان هذا خيطا هاما في روايتي التي ضللت بين صفحاتها المتراكمة ، فلم أشأ أن أفلته ، وقلت له لا لشيء الا لأدفعه الى الكلام عن ابنه :

ـ طيب .. ماتخليه يحفظك غيرهم .. مش قاعد معاك برضه ؟ ..

فطوح رأسه في تأفف وضيق وقال :

ـ أعوذ بالله ! .. يحفظني غيرهم ؟ .. دا لو طال يقطع لساني علشان ما أقراش .. يعملها ! .. دا واد وحش .. والنعمة الشريفة يا أستاذ بلاش تجيب لي سيرته ..

وبدا واضحا لى أنه لن يتكلم حرفا جديدا عن ابنه ، فهممت بمغادرته ، ولكنه مضى يقول :

ـ اذا كنت عاوز تكسب فى ثواب حفظنى انت ..

ولاحت لى هذه الفكرة وسيلة أخرى لاستخلاص حقائق جديدة عن حياته ، فوافقت عليها . وهكذا اتفقنا على أن يمر على فى البدروم بعد انتهائه من عمله ، فاقرأ عليه من المصحف بعض الآيات .. وفى المساء طرق بابى فقدته الى الحجرة الوحيدة التى تقل فيها الرطوبة ، وقدمت له مقعدا ، ولكنه أبى أن يجلس عليه مصرا على افتراش الأرض ، وقلت له بعد لحظات :

ـ أجيب لك تتعشى بقى ؟ ..

فقال فى اصرار :

ـ لأ ..ربنا يجعله عامر ـ احنا جايين علشان نشتغل .. يالله بينا بالصلاة على النبى .. !

ولكننى ألححت عليه حتى قبل ان يشرب كوبا من الشاى ، فغادرت الحجرة لاعداده ، وعندما عدت رأيته يمسك بين أصابعه بنصف قرش ، وبادرنى قائلا :

ـ شفت ياأستاذ .. واحد زبون ابن حرام استعمانى وادانى القرش ده .. !

فتناولت القرش وفحصته ، فلم أر فيه مايعيبه ، فأعدته اليه قائلا :

ـ ماله ياشيخ سيد ؟ .. ده عال قوى ..!

ـ عال ؟ آل عال آل .. ! طيب بص ..

وعض القرش بنابيه ثم أعاده الى فرأيت أثر النابين منغرسين فيه ، ومضى يطوح برأسه يمينا وشمالا ويقول :

ـ زباين ماعندهاش ذمة .. ! انمـا فكرك حيهرب منى ؟! .. أنا عارفه .. هو مفيش غيره .. الراجل أبو جلابية خضرة اللى فاتح عطارة عند السبيل .. من زمان مش مطمن للراجل ده .. باين عليه ماعندوش ذمة ! ..

ومضى فى حديث طويل ، وكنت أقلب السكر فى كوب الشـاى ، ولكننى لم أسمع ما يقول ، ولم أنتبه الى أن السكر ذاب فعلا ، فقد كنت شاردا فى طرق ملتوية مضللة من الافكار ، طرق تبدأ من الركن الذى يقبع فيه الشيخ سيد ، وتريد أن تنتهى الى كومة الاوراق التى على المكتب حيث أكتب روايتى الكسيحة عنه ، ولكن هذه الطرق لاتستشرف غايتها وانما تنعرج فى زوايا غريبة ، زاوية فيها مئذنة سامقة ، وأخرى فيهـــا بدروم رطب ، وثالثة فيها صوت أجش يصيح (زباين ماعندهمش ذمة) ويختلط صياحه بصفير صراصير وزقزقة عصافير .. !

وانتبهت من شرودى على صوته الأجش يقول :

ـ تعرف ياأستاذ .. الشغلة بتاعتنا دى .. عاوزة المفتح اللى يسلك مع زباين بالشكل ده .. ! أنا ساعات بافكر .. وأقول فى عقل بالى .. دا الواد حسنين عنده حق ! ..

والتقطت خيط حسنين من جديد فقدمت آليه كوب الشاى وسألته :

ـ عنده حق فى أيه بقى ياسيدى .. ؟

وبدأ عليه كأنما لم يسمعنى ، فقد مضى يرشف الشاى فى شـغف ، وناولته سيجارة غرسها بين شفتيه القذرتين ، ثم قام نصف قومة ليشعلها

من عود الثقاب الذى قربته منه ، وجذب نفسا عميقا منها نفخه فى الهواء متلذذا ثم قال :

ـ مش الواد حسنين يعنى ؟ .. سيبك منه .. دا واد مفترى ! .. دا أنا باقول كدهبس من قرفى من الزباين اللى ذمتهم أستك دول .. لكن فكرك يعنى ياأستاذ أنا باسمع كلامه .. ؟

ولم أكن قد فهمت شيئا حتى أجيبه عن سؤاله الأخير ، فسألته مستدرجا :

ـ تسمع كلامه فى ايه ؟

ـ الكلام اللى بيقوله دا يعنى ؟ .. عاوزنى أبطل شحاته ! .. انما أبطلها ليه ؟ .. خايف يعملولى محضر تسول ؟! .. طيب .. والنعمة الشريفة ياأستاذ .. أنا عندى أتحبس ولا أخليش واد زى ده يصرف على ! ..

ـ وهو بيشتغل ؟ ..

ـ دا واد نجار .. نجار مابوليا قد الدنيا ! وكسيب صحيح .. انما على مين ؟ .. على أبوه .. !

ومرة أخرى ، عادت أفكارى تشرد من الركن الذى يقبع فيه ، لتستقر على كومة الاوراق التى أريد أن أضعه فيها ، وعادت صورة المئذنة السامقة تتصارع فى ذهنى مع حضيض البدروم ، ومفاهيم الانسانية وقيمها تختلط محاولة أن تتمثل عبارته الاخيرة (على مين ؟ .. على أبوه) .. وتتزاحم الصور لتختفى وتفسح المكان لصورة بنت الباشا التى أريدها أن تنتحر من حبه ، وهو ماض فى حديث طويل لا أعى منه حرفا ، ثم أفيق على صوته يقول :

ـ وانا كمان ماأقدرش أبطل الشـــحاتة •• دا لو فات على يوم ماأسرحش فيه •• يتهيأ لى انى خلاص•• عمرى آنتهى •• ماليش لازمه فى الدنيا ! •• ثم يعنى •• ما تآخذنيش يعنىأبطلها ليه ؟ •• دا أنا بأطلع لى فى اليوم بخمسين ستين قرش •• أقل مافيها ! •• يعنى باكسب أكثر من يوميته اللى بياخدها •• وعامل لى بيها أبو على ! ••

ولم أجب ، لم تكن لى رغبة فى اجابته ، وحتى لو كانت عندى هذه الرغبة لما أجبته أيضا ، فقد كنت أفكر فى هذه اللحظة فى شىء آخر ، كنت أفكر فى تلك المعجزة التى خلقت حسنين من الشيخ سيد ؟ حسنين بثقته بنفسه ، وتوفر انسانيته ، والشيخ سيد بذلك الركام من العفن الذى يختنق تحته •• وبدا أن الشيخ سيد قد عدلَ عن آنتظار اجابتى عن سؤاله، فقد صاح فجأة وهو يناولنى كوب الشاى :

ـ يدوم ياأستاذ •• والنعمة الشريفة انت راجل أمير •• ياريت الواحد يربى له عشرة اتناشر زبونَ زيكَ ! •• يالله بينا بالصلاة على النبى •• الشغل •• !

وقمت ولما أفق من شرودى ، فأحضرت المصحف ، وفتحته كيفما اتفق ، وبدأت أقرأ :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ••

فقاطعنى قائلا :

ـ حاسب عندك •• أما نطفى السجاير •• احسن حرام ! ••

وأطفأ السيجارة ، ثم فرك الجزء المحترق بين أصابعه ، ووضعها فى جيب الجلباب تحت الجبة ، ثم اعتدلَ فى جلسته وتربع فى أدب وقالَ :

ـ اقرأ بقى ياسيدى •• !

وعدت اقرأ :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم •• هل أتاك حديث الغاشية ، وجـــوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى نارا حامية •

ولكنه عاد يقاطعنى وهو يتململ فى جلسته :

ـ بلاش السورة دى •• شوف لنا غيرها !
فقلبت صفحات المصحف وأخذت أقرأ أيضا كيفما اتفق :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم •• أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هى تمور •

فقاطعنى فى سرعة :

ـ لأ •• لأ •• بلاش دى رخرة ! •• شوف لنا غيرها أمال !

ـ جرى ايه ياشيخ سيد ؟ •• مش كله قرآن ؟! ••

فقال وهو يدفع بكفيه أمامه :

ـ آى نعم •• كله كلام الله ! بس يعنى •• الآيات اللى حضرتك بتقراها دى •• نار حامية •• ويخسف بكم الأرض •• الزباين تطفش ! •• أنا عاوز حاجة تنفعنى فى الشغل •• حاجة كده زى •• وأما السائل فلا تنهر •• وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم •• حاجة بالشكل ده !

فضحكت وأخذت أقلب المصحف بحثا عما يريد ، ثم بدأت أقرأ :

ـ وآتى المال على حبه ••

فقاطعنى وهو يعتدل فى جلسته منتبها :

ـ أيوه ياسيدى •• قول •• أهه كده ! •• وآتى المال على حبه •• آى نعم ! ••

ـ وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب •

ولكنه قاطعنى وقد تجهم وجهه :

ـ ياه ! •• كل دول ؟! •• ولما الزبون يفرق القرشين اللى معاه على دول كلهم •• يطلع السائلين بايه ؟ •• نكلـــة ؟! •• لاياعم •• يفتح الله ••

ثم نهض واقفا وهو يقول :

ـ الآيتين اللى بناكل بيهم عيش كويسين •• كفاية علينا ! ••

وبعد انصرافه •• وجدت نفسى أمزق كل ماكتبت من الرواية التى سيتخاطفها القراء ويتصارع عليها النقاد • انه لم يترك لى شيئا نبيلا أستطيع ان أقول انه يؤمن به ، كل مافى الوجود لخصه فى كلمة واحدة •• هى (أنا) حتى الدين •• لايعنى شيئا بالنسبة اليه الا الرزق ! •• كل جارحة من جوارحه ترجمها الى لفظ واحد •• هو القرش •• حتى عينه •• ألغى وجودها فى سبيل هذا القرش ! •• فكيف يتدلل على بنت الباشا ؟! •• لينتظر القراء •• وليصبر النقاد •• ولكننى لاأستطيع ان أمضى فى كتابة الرواية ! ••

وفى اليوم التالى حدث حادث غريب تسبب فى اختفاء الشيخ سيد من الحارة ، بل ومن الحى كله • كنت عائدا الى جحرى بعد الظهر عندما رأيت الناس متجمهرين على باب الحارة ، وسمعت صوت الشيخ سيد يصرخ :

ـ والنعمة الشريفة دا كداب •• ماتصدقوهش ياناس •• لاهو ابنى ولا أعرفه ••

فاخترقت الزحام لأرى الشيخ سيد يقاوم شابا حدث السن يجذبه من ذراعه وهو يقول :

ـ فضحتنا ! .. سودت وشنا في كل حتة ! .. يا أخي حرام عليك ..

ووقفت أتفحص الشاب ، كان نحيلا طويلا براق العينين حليق اللحية ، يلبس سروالا وقميصا مما يلبسه العمال ، وأصابعه التي تقبض على ذراع الشيخ سيد غليظة خشنة تنتشر فيها أخاديد من أثر آلة قاطعة ، وكان جبينه المنعقد وفمه المضموم في قوة يحكيان قصة كفاح مرير ، وخده الغائر فيه عمق الحضيض ، بينما يتوسط وجهه أنف بارز سامق كرأس مئذنة . وكان الشيخ سيد يقاومه في عنف وهو يردد :

ـ ياناس حوشوه عني .. والنعمة الشريفة مش ابني ..

فصاح به الشاب في ثورة حانقة :

ـ وكمان بتنكر اني ابنك .. ياراجل ياضلالي ..

فتقدمت منهما وقلت للشاب :

ـ انت حسنين .. مش كده ؟ ..

وبدت في عينيه دهشة لانني أعرفه ، ولكنه قال :

ـ أيوه ياحضرة .. أنا حسنين ابنه .. ومغلبني .. كل ما أروح أقفشه في حته يهرب لحتة تانية .. بقى دي أصول ؟ .. مادام ربنا ساترها يشحت ليه ؟ ..

وكأنما أدرك الشيخ سيد عندما رآني ان انكاره لن يجدي فقد قال في أنفة واعتزاز :

ـ ومالها الشحاته ياواد ؟ .. مش هي اللي ربتك وخلتـــك بني آدم .. ؟ حتتبطر عليها على الآخر ؟ ..

فقال الفتى وهو يجذب أباه ليمضي به :

ـ الشحاتة صحيح ربتني .. ما انكرش .. وكنت زمان بتشحت علشان تربيني .. انما دلوقت أنا بقيت راجل .. وباشتغل .. وباكسب .. لزومه ايه تفضل شحات ؟ .. دا انت محوش خمسميت جنيه ياأخي!..

وكان لهذا الرقم فعل السحر في الجماهير ، فارتفعت أصـــوات (خمسميت جنيه ؟ .. دا أغنى مننا ! الراجل الضلالي ! .. شوف النتن) .. وطالب بعضهم بضربه .. وشرعت الايدي تلوح في وجهه مهددة ، وأحس بأنه قد خسر عطف الناس ، فاستسلم لابنه الذي قاده الى الشارع .. ثم الى الميدان .. ثم الى المجهول . فلم نره بعد ذلك في الحارة .

***

هذه حكاية الشيخ سيد ، ولا أعرف ماذا حدث له ، ربما عاد للهرب من ابنه ، فقد أدمن التسول كما فهمت ؛ ولم تكن لديه مثل يعيش بهـــا ولها . وربما كان قد عثر على أول الطريق الذي يقوده من الحضيض الى القمة ، لاأدري ؛ ولكنني أعرف ما حدث لي وان لم أفهمه تماما ؛ فأنا لم أكتب الرواية حتى الآن ، وقد مضت خمس سنوات أو ســـــت ولم يتخاطفني القراء ويصطرع حولي النقاد ، وقد خلعت (البيبون) والياقة المنشاة ، وأصبحت حريصا على قص شعر رأسي ؛ ونسيت آلهة الأولمب ومشكلاتهم ، كما نسيت بنت الباشا وانتحارها . وهاأنذا كاتب صغير في مصنع الزجاج ؛ أخرج من عملي قبيل الغروب منهكا مرهقا ، ولكنني أقف في نافذة غرفتي في الطابق الثالث .. وأرى طرف المئذنة من بعيد ، فلا أفكر في الحضيض والقمة ، وانما أتذكر ـ لسبب غير واضح ـ حكاية الشيخ سيد ؛ فأبتسم ؛ ثم أغلق النافذة واستلقي على فراشي فأروح في نوم عميق .

الدار القومية للطباعة والنشر

شركة ذات مسئولية محدودة

١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج

تليفون ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٣١٦٢٥

طبع هذا الكتاب على ورق صناعة شركة راكتا



الكتاب الماسى
قصص عربية

يصدر قريباً

هارب من الأيام

الفائزة بجائزة الدولة لعام ١٩٥٨

ثروت أباظة



Bibliotheca Alexandrina
02274976

العدد ٣

الثمن ٢٠ قرشاً

الدار القومية للطباعة والنشر
١٥٧ شارع عبيد — روض الفرج — القاهرة
تليفون ٤٥٣٤٦ — ٤٥٤٠٥ — ٣١٦٢٥